جهود العلماء المُحْدَثين في كتابة السيرة النبوية

نموذجان:

النور الخالد محمد فخر الإنسانية

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج رسالة

الدكتور عمر أنور الزبداني(*)

مقدمة

السيرة النبوية من أقوى مصادر القوة الإيمانية، والعاطفة الدينية، التي لا تزال هذه الأمة والدعوات الدينية تقتبس منها شعلة الإيمان، وتشعل بها مجامر القلوب، التي يُسرع انطفاؤها وخمودُها في مهب الرياح والعواصف المادية، والتي إذا انطفأت أو خمدت، فقدت هذه الأمة قوتها، وميزتها، وتأثيرها، وأصبحت جثة هامدة تحملها الحياة على أكتافها[1].

بدأت الكتابة في السيرة النبوية منذ مرحلة مبكرة من مراحل تدوين العلوم الإسلامية، وتتابعت جهود العلماء في الكتابة في هذا الموضوع، بحيث لم يخلُ عصر من العصور إلا وكتب فيه العلماء عن سيرة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم. وقد أسهم علماء الإسلام المُحْدَثين والمعاصرين بنصيب وافر في هذا الباب، وقدموا إسهامات قيِّمة في هذا الباب، خاصة على مستوى تحليل أحداث السيرة، وعلى مستوى الاستنتاج واستخلاص العِبَر والدروس المستفادة من أحداثها.

ضوع هذا البحث يتناول كتابين من كُتب السيرة النبوية لعالِمَين مُحْدَثين، هما: الأستاذ محمد إبراهيم الصادق عُرجون. والأستاذ محمد فتح الله كَولن. ويهدف البحث أساساً إلى إلقاء الضوء على جهود هذين العالِمَين في كتابة السيرة النبوية، أسلوباً، ومنهجاً، وتحليلاً، واستنباطاً، ونتائج، وبيان جديدهما، وما امتازا به عن الكتب التي سبقتهما، أو عاصرتهما في هذا الباب.

ويقوم منهجي في هذا البحث على رصد وتحليل ما جادت به قريحة كلٍّ من هذين العالِمَين في كتابيهما المشار إليهما، ومن ثَمَّ استخلاص أهم الأفكار التي اعتنيا بها، ثم المقارنة بين منهجهما في

---

* – باحث على موقع (www.islamweb.net)

[1] هذه الديباجة مستفادة من تصدير كتاب "حياة الصحابة" للأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي: 15.

تناول أحداث السيرة النبوية وتحليل وقائعها.

وقد بحثتُ موضوع هذه الورقة وَفَق العناوين التالية:

أولاً: مقدمة حول كُتب السيرة النبوية قديماً وحديثاً.

ثانياً: دراسة كتاب (النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية).

ثالثاً: دراسة كتاب (السيرة النبوية: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة بحث وتحقيق).

رابعاً: مقارنة بين الكتابين.

وذكرتُ في خاتمة المطاف أهم النتائج التي خرجتُ بها، وقدَّمتُ بعض التوصيات المتعلقة بموضوع الندوة.

أولاً: تمهيد حول كُتب السيرة النبوية قديماً وحديثاً

اهتم المسلمون قديماً وحديثاً بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتبارها المنهج العملي للإسلام، فألَّف أئمة الإسلام مؤلفات عديدة وجامعة في سيرته عليه الصلاة والسلام، ودوَّنوا كل ما يتعلق بذلك. والناظر في المكتبة الإسلامية يرى ذلك جليًّا. وفيما يأتي نذكر أهم هذه المصادر القديم منها والحديث.

تعدُّ سيرة ابن اسحاق (151هـ) أوثق كتب السيرة المتخصصة التي وصلت إلينا بتهذيب ابن هشام (213هـ)، فابن إسحاق حجة في المغازي كما صرح الذهبي، رغم ما ذكره النقاد المحدثون من وجود المناكير والعجائب في رواياته؛ إذ إنهم قبلوا من أحاديثه في أمور العقيدة والشريعة ما صرح فيها بالتحديث، ولم يدلس ما لم يخالف من هو أوثق منه، واعتبروها في مرتبة "الحسن" الذي يحتج به.

أما المصدر الآخر من كتب السيرة فهو مغازي الواقدي (207هـ)، وقد رفض النقاد من المحدثين قبول مروياته، ولكن المؤرخين اهتموا بها؛ لغزارة معلوماته، وتقديمه تفاصيل كثيرة ينفرد بها، سواء في وصف الغزوات، أو تحديد تواريخ الأحداث بدقة. والملاحظ من استقراء مغازيه أنه يسوق روايات كثيرة بأسانيد فيها رواة لا نجد لهم تراجم في كتب علم الرجال، في حين أن نُقُول ابن سعد عنه في الطبقات الكبرى منتقاة، ونجد تراجم رجال الأسانيد في المصادر المعنية.

وثالث كتب السيرة المهمة هو كتاب "الطبقات الكبرى" لمؤلفه محمد بن سعد (230هـ) وكان كاتباً للواقدي، مما جرَّ إلى اتهامه بسرقة مصنفاته، ولكن المحدثين النقاد رفضوا هذه الاتهامات

ووثقوه، كما أن التحقيق والاستقراء لكتابه يكشف عن كونه مؤلفاً أصيلاً، وأن رواياته عن الواقدي -وقد صرح بالنقل عنه- لا تمثل معظم الكتاب الذي استقى مادته من شيوخ عديدين.

وينبغي أن يُعدَّ القسم الأول من "أنساب الأشراف" للبلاذري (279هـ) هو المصدر الرابع من حيث الأهمية والقِدم. أما الطبري (310هـ) فإن جلَّ اعتماده على ابن اسحاق، وإن أضاف روايات من مصادر أخرى.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن مصادر متأخرة نسبياً مثل "الدرر في اختصار المغازي والسير" لابن عبد البر القرطبي (463هـ)، و"جوامع السيرة" لابن حزم (456هـ) ليست إلا أصداء للمصادر القديمة. ولكن المصادر التي تلتها زمنيًّا استقت من كتب الحديث إلى جانب كتب السيرة المتخصصة، ويبدو هذا المسلك واضحاً عند ابن سيد الناس (734هـ) في "عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير"، والذهبي (748هـ) في "السيرة النبوية"، وابن كثير (774هـ) في قسم السيرة من كتابه "البداية والنهاية"، وقد أبدى الأخيران ملحوظات نقدية مهمة عن الأسانيد والمتون.

ومن كتب السيرة المهمة غير ما تقدم كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض (544هـ)، وكتاب "زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن قيم الجوزية (751هـ)، وهذا الأخير كتاب عجيب فريد، فيه الكثير من التفاصيل عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه وسيرته وفقهها.

ثم ظهر الاتجاه نحو الجمع الواسع لكتب السيرة عند محمد بن يوسف الدمشقي الشامي (942هـ) حيث انتخب من ثلاثمائة كتاب في السيرة كتاباً سماه (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد).

ولا ينبغي هنا أن نغفل أهمية كتب الدلائل والشمائل، ومن أوسعها "دلائل النبوة" للبيهقي (458هـ)، وكذلك كتب الخصائص، ومن أهمها كتاب ابن الملقن (804هـ) "غاية السول في خصائص الرسول"، وكتاب الخيضري الدمشقي (894هـ) "اللفظ المكرم بخصائص النبي صلى الله عليه وسلم"[1].

وفي العصر الحديث كتب كثيرون عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكتب صفي الرحمن المباركفوري (1427هـ) "الرحيق المختوم في السيرة النبوية"، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العديد من اللغات. وكتب محمد الغزالي (1416هـ) كتاب "فقه السيرة". وكتب محمد سعيد رمضان البوطي كتاب "فقه السيرة النبوية". وكتب مهدي رزق الله أحمد كتاب "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: دراسة تحليلية". وكتب إبراهيم العلي "صحيح السيرة النبوية". وكتب الأستاذ

[1] أكثر ما تقدم مستفاد من مقال للدكتور أكرم ضياء العمري على موقع (www.islamweb.net).

أكرم ضياء العمري "المجتمع المدني في عهد النبوة".

وقد خصصت أغلب الجامعات الإسلامية قسماً من أقسام دراساتها العليا لدراسة السيرة النبوية، وسُجلت العديد من الرسائل العلمية والأبحاث الجامعية في موضوعات السيرة النبوية.

هذا، وكان من بين الكتابات المعاصرة في السيرة النبوية كتاب "النور الخالد: محمد مفخرة الإنسانية"، للأستاذ فتح الله كولن، وكتاب "محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم: منهج ورسالة بحث وتحقيق" للأستاذ محمد إبراهيم الصادق عرجون، وهما موضوع هذه الورقة. والبداية مع كتاب النور الخالد.

ثانياً: كتاب (النور الخالد محمد فخر الإنسانية)

على ضوء قراءتنا لكتاب (النور الخالد محمد فخر الإنسانية)، نستطيع أن نرصد جملة من المعالم التي اتصف بها عمل المؤلف في هذا الكتاب، وهي وَفْق التالي:

- تقديم مادة السيرة النبوية بأسلوب عصري سهل، خالٍ من التعقيد، وبعيدٍ عن التكلف والتمحل في سرد وقائع السيرة، فالمؤلف شديد الحرص على سلوك أسهل الطرق وأيسرها لعرض فكرته التي يريد إيصالها إلى قارئه. فعلى سبيل المثال، عندما يشرح قصة إسلام حُصين نجده يقول: "لقد جاء حُصين إلى النبي صلى الله عليه وسلم ناوياً نصحه، وإقناعه بترك دعوته. ولقد كان النبي يملك قدرة خارقة في معرفة محدثه والوقوف على مستواه؛ لذا نراه يخاطب محدثه بعبارات غاية في الدقة، بحيث لو بُدِّلت كلمة واحدة منها، أو وُجِّهت نفس العبارات إلى إنسان آخر، له شخصية مختلفة عن الأول، لما وصل إلى الهدف المنشود أبداً...لقد كانت هذه مَلَكَة طبيعية عنده، بحيث يعرف ويعين بسرعة أين ومع من يتكلم، وكيف يتحدث. ومن ثم كانت كل كلمة ينطقها ضرورية، وفي محلها تماماً"[1]. وأنت تلحظ هذا الأسلوب السهل في عرض مادة السيرة في كل ما عرضه المؤلف من أحداث ووقائع.

- مما يلاحظ على الكاتب مدى حبه بالنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم وتعلقه به، وعاطفة الحب هذه بارزة على طول الكتاب وعرضه، فالمؤلف كتب كتابه بحب عميق للرسول صلى الله عليه وسلم، وتدل على مدى تأجج هذه العاطفة عند المؤلف العديد من العبارات، كقوله: "...إن للمسألة وجهة أخرى لا أستطيع إهمالها، ولا الهرب من السؤال الذي تطرحه: أنملك قلباً لائقاً

---

[1] النور الخالد: محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية: محمد فتح الله كَولن. القاهرة: دار النيل، ط1، 1428هـ–2007: 174. ويُنظر أيضاً على سبيل المثال لا الحصر: السابق: 179، 181، 191، 204-205، 209، 217، 285، 362-365، 380، 413، 577.

بسلطان القلوب هذا؟ هل هذا السلطان مستريح في مجلسه من القلوب؟ هل قلوبنا مفتوحة له على الدوام؟ أنلاحظه في قيامنا وقعودنا، في أكلنا وشربنا؟ أنلاحظ محمداً بقلوبنا في جميع حركاتنا وسكناتنا؟ أنسير في جميع شؤون حياتنا على الخط الذي رسمه لنا؟"[1].

ويصف في موضع آخر تأثير الرسول صلى الله عليه وسلم على سلوك الإنسانية وصفاً يدل على مدى حبه له، وتعلقه به، فيقول: "وهل هناك إنسان آخر يمكن أن يكون صاحب هذا التأثير وهذه الجاذبية القوية؟ كلا أبداً، إنه هو الفرد الفريد في الكون وفي الزمان...نعم كل شيء لوجهه الكريم"[2]. وكثيراً ما يصفه بـــ "فخر الكائنات"[3].

– اجتهاد المؤلف في فهم أحداث السيرة النبوية من خلال تحليل موضوعاها، وتحري مقاصدها، والبحث عن غاياها؛ يستبين لنا هذا المسلك عند بيانه الغاية من إرسال الرسل والأنبياء، حيث يقول: "إن فحص وتحليل هذا الموضوع مهم جداً؛ لسببين رئيسين: الأول: لكي يتم فهم ومعرفة مدى سمو مرتبة النبوة، وتجنب الظن بأنهم كانوا أناساً عاديين، وتهيئة الرد على من يظن ذلك. الثاني: الإشارة إلى الطريق الواجب سلوكها للذين يمثلون وظيفة الأنبياء، وإلى النظام الذي يجب أن يتبعوه في هذا الموضوع"[4].

وعند حديثه عن معركة (أُحد) و(حنين) فقد رأى في هاتين المعركتين أنهما "أفضل معاركه صلى الله عليه وسلم من ناحية إظهار عبقريته العسكرية؛ ذلك لأن الأمور جرت في المعارك الأخرى مثلما خطط لها تماماً، ووصل إلى النصر فيها بسهولة، أما في هاتين المعركتين فقد ظهرت أمور، وطرأت مشاكل غير محسوبة، حرَّفت خططه وغيرها، وأعطت فرصاً للعدو، ولكنه استطاع مع هذا الوصول إلى النصر، و لم يكن له أي دخل في تلك المستجدات؛ لذا كان قيامه بإنقاذ جيشه من الهزيمة الوصول إلى النصر في هاتين المعركتين أفضل وأوضح برهان على العبقرية العسكرية لذلك القائد العظيم"[5].

– عَقْدُ المشابهات بين أحداث السيرة وما يجري في واقعنا المعاصر، وهذا المنحى واضح على كثير من صفحات الكتاب؛ فعند الحديث عما لاقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنت قومه، وصدهم له عن تبليغ دعوته، نجده يربط ما يجري اليوم بما جرى بالأمس، فيقول: "وكما جُنَّ الكفر

---

[1] السابق: 49–50.

[2] السابق: 176.

[3] السابق: 188. ويُنظر أيضاً: السابق: 281، 297، 604.

[4] السابق: 55–56.

[5] السابق: 489.

في الوقت الحالي أمام الصحوة الإسلامية في شرق العالم وغربه، وأصبح يهذي، كان الكفر أيضاً قد جُنَّ وهو يرى حلقات الأتباع وهي تزداد حول الرسول صلى الله عليه وسلم، وأدى هذا الجنون الذي أصاب الكفر إلى توهم أنهم يستطيعون إطفاء نور الله سبحانه، ولكن هيهات...فمحاولاتهم تلك أشبه بمن يحاول إطفاء نور الشمس بأفواههم...في أيامنا الحالية هذه انقدحت الشرارات في نفوسنا من المشعل الذي أشعله نبينا صلى الله عليه وسلم، فسارت مئات الآلاف في طريقه، وهم يحملون أرواحهم على أكفهم من أجله ومن أجل إعلاء دعوته...فالله سبحانه شاء أن تتجدد الآن تلك الهالة المحمدية، وأن تتكرر تلك السلسلة الذهبية، أما حقد الكفر وغيظه، وشدته، وحدِّته، ومكره، وخديعته، فلن تستطيع الوقوف أمامها، أو إيقاف سيرها"[1].

– توظيف سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفوس الأمة؛ لترسيخ القيم الإسلامية، فعند حديثه عن قيمة الإخلاص كخصيصة من خصائص الأنبياء عليهم السلام، ينطلق من هذا ليقرر "أن الأشخاص العاديين يمكنهم أن يصلوا إلى درجة معينة في مرتبة الإخلاص، إن هم بذلوا جهدهم"[2].

وعند الحديث عن صفة الأمانة التي تمتع بها الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي شملت أصحابه، ومن بعدهم، يذكر في هذا الخصوص أمانة الجنود العثمانيين في الحروب التي خاضوها لنشر الإسلام، والدفاع عن المسلمين، فإنهم لم يفتحوا البلاد بالسيف، بل بالأمانة، "فعندما كان الجنود العثمانيون يمرون بالقرب من البساتين والحدائق وهم في طريقهم إلى الحرب، كانوا يعلقون أثمان الفواكه التي يقطفونها من هذه البساتين على أغصان الأشجار. فكانوا بمثل هذه التصرفات الإنسانية النبيلة، يفتحون قلوب سكان البلاد قبل فتح هذه البلدان بحد السيف، وإلا ما كان باستطاعتهم فتح بلدان أوروبا، ولا إدامة بقائهم فيها مع وجود كل هذا الحقد الصليبي المرعب"[3].

– يلجأ المؤلف كثيراً إلى التشبيهات؛ لإبراز المعاني ذات الدلالات الخاصة والمضامين المعبِّرة؛ فمثلاً يشبه السيدة فاطمة رضي الله عنها –بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم– بـــ (زهرة حديقة النبوة"[4]. وعندما يتحدث عن جوامع كلامه صلى الله عليه وسلم يصفه بصورة بديعة، يقول: "لقد حدَّ سيد الفصحاء من جوهر الكلام سيفاً صقيلاً –بمجرد رسمه حلزوناً فوق الرؤوس– بمطاردة كل

---

[1] السابق: 59–60.

[2] السابق: 70.

[3] السابق: 129. هذا، وتوظيف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصفات في حياتنا المعاصرة، هو ديدن المؤلف في كتابه. يُنظر بالإضافة إلى ما تقدم: السابق: 136، 137، 152–153، 169، 167، 172، 247، 257، 491.

[4] يُنظر: السابق: 73.

خفافيش البيان الكاذب والمزخرف، وفرت كل الأكاذيب إلى أقصى بلاد العنقاء، وأسال من أودية البيان ينابيع وعيوناً، حولت صحارى الجاهلية إلى رياض زاهرة، وشلالات هادرة، بحيث وجد كل أصحاب القلوب المنفتحة على الإيمان أنفسهم في بحار هذه العيون المتدفقة نحو محيطات الأبدية والأزلية"[1].

وعند تحليله لأحداث ومجريات غزوة (أُحد)، يصف المؤلف هذه الغزوة بأنها "المرتقى الصعب"[2]. ومن هذه البابة أيضاً، وصفه للصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه بأنه "الضيف العزيز لمدينة إستانبول"[3]. وبالمقابل، يُطْلِق على العهد الذي سيطر فيه النظام الشيوعي على العديد من دول العالم، يُطْلِق عليه "العهد الشيطاني"، أو "القرن الشيطاني"[4].

– يستدل المؤلف من بعض أحداث السيرة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم؛ إذ إن أحداث سيرته صلى عليه وسلم ومجرياتها غنية بالشواهد والأحداث الدالة على صدق نبوته؛ ففي سياق الحديث عن أقواله صلى الله عليه وسلم التي تتحدث عن أمور مستقبلية، يقرر في هذا السياق أن "أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت في الذروة في كل أمر من الأمور، وهذا يُشكِّل بُعداً آخر حول صدقه واستقامته...إنه لم يتحدث أبداً خلاف الحقيقة، وخلاف الحق؛ ذلك لأن ما تحدث فيه لم يكن من عنده، بل من الوحي الإلهي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذا هو السبب في أنه أصبح سلطان الكلام الحق على مرِّ العصور"[5].

وعندما يتحدث عن قوله صلى الله عليه وسلم: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) الحديث[6]، نجده يستدل على صدق نبوته بما جرى ويجري اليوم في بلاد الإسلام، "فقد يبدو هذا الحديث لأول وهلة وكأنه يتحدث عن الحروب الصليبية، ويخبر عنها، ولكن إن تمعنا قليلاً، لرأينا أنه ينطبق وبوضح تام على الحوادث القريبة أيضاً...كلنا يعرف كيف تكالب الأعداء على الدولة العلية العثمانية، فقد كان كل همهم الاستيلاء على ثرواتها ما ظهر منها وما بطن، وكان هذا التكالب والافتراس وحشياً بدرجة أفظع من شدة الحروب الصليبية شراسة. أجل، فقد دعا بعضهم بعضاً إلى هذه المائدة، واقتسموا ثروات البلاد فيما بينهم ونهبوها"[7].

---

[1] السابق: 181. ويُنظر أيضاً: السابق: 182، 184-185.
[2] يُنظر: السابق: 441.
[3] يُنظر: السابق: 701.
[4] يُنظر: السابق: 103.
[5] السابق: 86. ويُنظر أيضاً: السابق: 87.
[6] رواه أبو داود في "سُنَنه"، كتاب الملاحم، باب: في تداعي الأمم على الإسلام، رقم (3745). قال الشيخ الألباني: صحيح.
[7] النور الخالد، مرجع سابق: 101. ويُنظر أيضاً: السابق: 503-504.

– يناقش المؤلف بعض الأقوال الخاطئة، أو المغرضة، ويبين وجه الصواب فيها؛ فمثلاً أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالغيب، لا ينبغي أن تُحْمَل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم بالغيب مطلقاً، ومن يعتقد ذلك فهو "يميل إلى الإفراط والمبالغة. ومن يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف الغيب مطلقاً يميل إلى التفريط...فما قاله لم يكن من عنده، بل مما أخبره الله تعالى به عن طريق الوحي"[1].

ويدفع الخدعة الصليبية التي كانت تصور الحروب الصليبية على أنها آتية إلى بلاد المسلمين لإنقاذ قبر مريم العذراء! ثم يقرر وجه الحقيقة هنا "بأننا نبجل ونحترم مريم العذراء أكثر منهم؛ ذلك لأننا نعتقد أن مريم العذراء ستكون زوجة لرسولنا صلى الله عليه وسلم في الجنة[2]، إي إننا ننظر لها كأم للمؤمنين، ولو كانت سيدتنا مريم العذراء حيَّة، لكنا نحن المدافعين عنها ضد أي شخص يريد مسها بأذى من قريب أو بعيد"[3].

– يؤكد المؤلف في العديد من المواضع في كتابه على أن الكلمات تعجز عن إعطاء المعاني التي تضمنتها السيرة النبوية حقها؛ ففي أثناء الحديث عن الأخبار الغيبية المستقبلية التي أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقعت كما أخبر عنها، وأن الأيام تُظْهِر على الدوام صدق كل ما قاله، وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يحين الوقت المناسب، يُتبع ذلك بقوله: "أجل، قد تقصر تعابيرنا عن إيفاء هذه المعاني حقها، ولكن كل مؤمن يسمع هذا الصوت في ضميره"[4].

وبعد أن يحلل عبارة (ما لا يعنيه) الواردة في قوله صلى الله عليه وسلم: (من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[5]، يردف تحليله لهذه العبارة بالقول: "كل ما قمت به هو أنني حاولت أن أُهوي بمعول التعبير على البِنية الرصينة الصلبة لذلك الحديث، فكان كل ما وصلكم عبارةً عن بعض القطع المتناثرة منها. وقد لا أكون موفقاً في شرح تلك المعاني كما يجب، غير أن عجزي وعجز أمثالي ليس إلا برهاناً لمدى قوة التعبير عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.."[6].

– يفسر بعض الأحاديث النبوية التي تحدثت عن أمور غيبية بالأحداث المعاصرة؛ فقوله صلى

---

[1] السابق: 87.

[2] يشير في هذا إلى قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران، وامرأة فرعون، وأخت موسى)، رواه الطبراني في "المعجم الكبير".

[3] النور الخالد، مرجع سابق: 102.

[4] السابق: 98.

[5] رواه مالك في "الموطأ" كتاب حُسْنُ الخلق، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم (1402).

[6] النور الخالد، مرجع سابق: 203. ويُنظر أيضاً: السابق: 579.

الله عليه وسلم: (الفتنة ها هنا من حيث يطلع قرن الشيطان)[1]، يرى في عبارة (قرن الشيطان) أنها تعني (عصر وعهد الشيطان)، وهو نقيض (عهد النبوة). فهذا النظام الشيوعي قائم على الإلحاد، وعلى الإباحية، وعلى جميع المفاسد الشيطانية التي تحاول التسلل إلى القلب عن طريق النفس الأمَّارة...ومع أن هذا النظام الشيوعي، الذي يُعدُّ الابن غير الشرعي للنظام الرأسمالي، يحتّضر في هذه الأيام، إلا أنه لا يزال يُعدُّ ألد أعداء الدين والمقدسات.."[2].

ويفسر قوله صلى الله عليه وسلم: (يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه)[3]، يفسر هذا الحديث بالفلسفة المادية، التي لم تعطِ أُذناً صاغية للحق، ولا للحقيقة، والتي قضت على إنسان دنيا الكفر والإلحاد هذا قضاء معنويًّا، وأشاعت الشك والشبهة بين المسلمين"[4].

– كثيراً ما يعلق المؤلف الأمل على أجيال الشباب، ويعتبرهم أنهم هم الذين سيعيدون إلى الإسلام بريقه وجوهره، وهو طوال الوقت الذي يكتب فيه كتابه يضع في ذهنه مجموعة من الشباب الذين يستهدفهم بكتابته، بل هو يتوقف أحياناً عن السياق الأصلي، ليحدِّث هؤلاء الشباب، ويلفت انتباههم إلى معنى دقيق يريد توصيله إليهم؛ لنستمع إليه وهو يوجه خطابه إلى هؤلاء الشباب: "ستقومون أنتم بإهداء حقائق الدين، وإقامتها في الدنيا مرة أخرى. فأنتم باقة ضوء من منبع نور عظيم، أضاء أطراف العالم الغارق في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبى، ظلَّلت بأوراقها وأزهارها كل الأرجاء...وستقومون أنتم –بإذن الله– باستعادة تلك العهود الزاهرة، والتخلص سريعاً من هذا العهد المظلم الذي نعيشه. فهذا هو ما يأمله الجميع منكم...يأمله من يعيش فوق التراب، ومن هو مدفون تحته، بل هذا ما يأمله منكم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم"[5].

– لا يتناول المؤلف السيرة كسرد أحداث، وذكر تواريخ، بل يتناولها من ناحية حكمتها ومعانيها وأسرارها وتطبيقاتها المعاصرة؛ فمثلاً يتحدث عن أهداف العفو عن أسرى بدر[6]. وعند الحديث عن مفهوم الجهاد في الإسلام يقرر أن الحرب في الإسلام ليست هدفاً لحد ذاته، بل وسيلة

---

[1] رواه البخاري في كتاب الفتن، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم الفتنة من قِبَل المشرق، رقم (6563)، ورواه في مواضع أُخر من "صحيحه". ورواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان، رقم (5167).

[2] النور الخالد، مرجع سابق: 102. ويُنظر أيضاً: السابق: 103-104.

[3] رواه ابن أبي حاتم. ويُنظر: التفسير العظيم، إسماعيل ابن كثير: 248/7. و(الزكمة) من زكم زكاماً وزكمة: أصابه الزكام.

[4] النور الخالد، مرجع سابق: 568.

[5] السابق: 137.

[6] يُنظر السابق: 436.

لهدف أسمى[1]. ومن جانب آخر نجد المؤلف يعمد إلى تحليل أحداث السيرة، فمثلاً يحلل أحداث غزوة أحد، فيعتبر أن ما حدث فيها ليس خسارة بالمعنى العسكري، وإنما كان هزة للمسلمين، ودرساً عسكريًّا كبيراً[2]. وعند الحديث عن غزوة بني المصطلق، يتحدث عن عامل الليل في أسفاره صلى الله عليه وسلم، وأثره في تحديد نتائج المعركة، فقد كان "الرسول صلى الله عليه وسلم يقطع المسافات المادية والمعنوية في الليل؛ لذا كان يسافر ليلاً، ويرتاح نهاراً، وهكذا يفاجَأ الأعداء به؛ إذ يرونه أمامهم فيذهلون"[3].

– يربط المؤلف بين أحداث السيرة وقضايانا المعاصرة، ويقارن بين سيرة الأمس وواقع اليوم؛ فمثلاً تحاول الدول اليوم بكل الوسائل مكافحة عادة التدخين، فلا تستطيع إلى ذلك سبيلاً، "بل لا تستطيع مجرد خفض نسبة التدخين –المستمرة في التصاعد– إلى نسبة معقولة، مع أن الإحصاءات تقول: إن نسبة الإصابة بسلطان الحنجرة والرئة وسقف الفم نسبة كبيرة، قد تبلغ 95%، إلا أن هذه الجهود والإحصاءات لا تفيد في مكافحة عادة التدخين. ومع أن أهل الجاهلية كانت لهم كثير من العادات الضارة التي تشربتها نفوسهم، واختلطت بدمائهم، فأصبحت أقوى بكثير من عادة التدخين، بَيْدَ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استطاع بنفحة واحدة، أن يزيل هذه العادات الضارة، وأن يزينهم بدلاً منها بعادات جميلة، وبخلق حسن، وبخصال حميدة"[4].

والأسس الأخلاقية التي أرساها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ممارسة الحرب وقتال المعتدين، لم تصل إليها أرقى الدول اليوم التي تتشدق بالحرية وحقوق الإنسان؛ فبعد أن عانى المسلمون أشد أنواع الاضطهاد والتعذيب من أعداء هذا الدين، وتحت "هذه الظروف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاد والنضال ضد أعدائه، كأنه يقول لمعاصريه المعاندين: ليس بوسعكم منع حرية الفكر، ولن تستطيعوا سد الطرق المؤدية إلى الإنسانية. ونحن لا نزال نصفق للثورة الفرنسية، ونعدها باباً مفتوحاً للحرية، مع أنها حفلت بآلاف من مشاهد القتل والوحشية، وذبحت آلاف الأشخاص...بينما قام الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرناً بتمزيق حجب الظلام، وبإزالة الاستبداد والظلم، وبتقديم الحرية، وإهدائها إلى الإنسانية"[5].

وإذا كان رسول الإسلام قد جعل السلم هو الأساس في الإسلام، ومن ثم أرسى قواعد السلم

---

[1] يُنظر السابق: 444.

[2] يُنظر السابق: 458.

[3] السابق: 464-465.

[4] السابق: 313. ويُنظر أيضاً: السابق: 147، 366، 392، 394.

[5] السابق: 397-398.

العالمي، فإن الغرب -لا ماضياً ولا حاضراً- لم يعرف القيم الإلهية؛ لذا قام باحتلال البلدان، ووضع يده على ثروات تلك البلدان ما ظهر منها وما بطن، واستعبد أهلها، وأقام المستعمرات، وأراق الدماء، ونشر الدمار والخراب. لقد كان هذا هو الهدف الحقيقي لحروب البلقان، وللحربين العالميتين الأولى والثانية، ولجميع الحروب التي شهدها القرن العشرين، وما زال يشهدها القرن الواحد والعشرين. "أما الحرب في الإسلام، فقد شُرعت لغاية سامية، ومن أجل احترام حرية الفكر والاعتقاد، ومن أجل فتح الطرق المؤدية إلى القيم الإنسانية"[1].

– حضور شخصية النُّورْسي بقوة في فكر المؤلف، فهو كثير الاستشهاد بأقواله، وكثير الاعتداد بأفكاره، وهو يصفه بأوصاف تحمل دلالات عميقة، فحيناً يصفه بأنه "أحد تلاميذ الرسول صلى الله عليه وسلم"[2]، وحيناً آخر يصفه بأنه "مفكر العصر"[3]، وتارة يصفه بأنه "أحد المفكرين الكبار"[4]، وتارة أخرى يصفه بأنه "من الأشخاص الذين سبقوا عصورهم"[5]، ومرة يصفه بأنه "داعي القرن العشرين"[6]، ومرة أخرى يصفه بأنه "مفكر العصر الحديث"[7].

– يلاحظ على المؤلف الابتعاد عن الخوض في المسائل الفقهية المستفادة من السيرة الشريفة؛ إذ يعتبر ذلك خروجاً عن الموضوع؛ فعند الحديث عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لرؤساء الدول، يذكر الموقف الإيجابي للنجاشي من دعوة الإسلام، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته: (إن أخاً لكم قد مات، فقوموا فصلوا عليه)[8]، ذكر أن الفقهاء اختلفوا في موضوع صلاة الغائب، وذكر باختصار شديد أقوال الأئمة في المسألة، ثم أتبع ذلك بقوله: "وهذا موضوع فقهي، لا نردي الدخول في تفاصيله هنا"[9].

ونظير هذا، ما ذكره من اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاة الجماعة؛ فقد ذكر باختصار مكثف أقوال الأئمة في المسألة، ثم عقَّب بالقول: "لا نريد هنا تحليل الموضوع فقهيًّا، بل أردنا القيام بتذكير بسيط؛ لأن غرضنا الأصلي هو عبودية رسولنا صلى الله عليه وسلم، ومدى تعلق

---

[1] السابق: 399. ويُنظر أيضاً: السابق: 402-403، 426، 439، 459.

[2] السابق: 153، 262.

[3] السابق: 281، 285.

[4] السابق: 313.

[5] السابق: 340.

[6] السابق: 604.

[7] السابق: 659.

[8] رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب: في التكبير على الجنازة، رقم (1584)، (1585).

[9] النور الخالد، مرجع سابق: 163-164.

قلبه بالصلاة، وعمق هذه الصلاة عنده"[1].

وعندما يتجه لتحديد المراد من السنة النبوية، وبيان مكانتها في شريعة الإسلام، نراه يبادر إلى القول: "ولا نود الدخول إلى هذا الموضوع الواسع جداً، بل ندعه لأهل الاختصاص، ونقتصر هنا على نظرة سريعة ومجملة على بعض المسائل المهمة المتعلقة بالسُّنَّة"[2].

– توظيف أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم في حياتنا المعاصرة؛ لتصويب سلوك المسلم، وضبط سير اتجاهه؛ يتضح هذا المسلك عند المؤلف عند بيانه لقوله صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[3]، حيث يقرر "أن الفرد المسلم مثلما يجب عليه الابتعاد عن كل ما يضر شخصه ماديًّا أو معنويًّا، كذلك يجب عليه الابتعاد عن الإضرار بالآخرين. وليس هذا فحسب، بل عليه أن يكون ممثلاً للأمن والأمان في كل شريحة من شرائح المجتمع. أجل، إن المسلم مسلم حقيقي بدرجة شعور الأمن الذي يضمه في جوانحه، وهو في غدوه ورواحه وحركاته وسكناته وقيامه وقعوده ترجمان للشعور النابع من السلام"[4].

أما قوله صلى الله عليه وسلم: (اليد العليا خير من اليد السفلى)[5]، فهو مَعْلَمٌ رئيس من معالم التربية النبوية، فقد كان رسول الله صلى لله عليه وسلم يوصي صحابته ومَنْ بعدهم بهذه الوصايا: "كونوا أعزاء النفوس، ولا تزلوا أنفسكم بالتسول، ولا تهبطوا أبداً –أفراداً كنتم أو أمة– إلى مستوى اليد الآخذة، بل كونوا دائما اليد المعطاء. وبمثل هذا تبقون على مكانتكم المرموقة، وتحافظون على عزتكم. ولا تنسوا بأن اليد العليا تكون دائماً في أمن، وهي تعطي وتبذل، واليد السفلى تكون دائماً في قلق، وهي تلتقط العطايا. كونوا أنتم اليد الحاكمة، ولا تكونوا اليد المحكومة، فإن كنتم فوق كنتم اليد العليا"[6].

ومن وجوه توظيف هذا الحديث أيضاً، أنه يشكل "مقياساً وقسطاساً لنا لا يخطئ في المناسبات الدولية؛ فإن كنا يداً عليا، كانت لنا مكانتنا في التوازن الدولي، عند ذلك تجد جماهيرنا الفرصة السانحة للتخلص من استغلال القوى العظمى لها ولثرواتها، وإلا لما تخلصت من وضع

---

[1] السابق: 594.

[2] السابق: 609.

[3] رواه البخاري في "صحيحه"، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم (9)، (10). ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، رقم (58).

[4] النور الخالد، مرجع سابق: 200. ويُنظر أيضاً: المرجع نفسه: 201.

[5] رواه البخاري في "صحيحه"، كتاب الزكاة، باب: لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (1338). ورواه مسلم في كتاب الزكاة، باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن اليد العليا هي المنفقة وأن السفلى هي الآخذة، رقم (1715).

[6] النور الخالد، مرجع سابق: 208.

الجماهير المهانة والمستَغَلَّة..ونحن اليوم نعيش ذلة؛ كوننا "اليد السفلى"؛ لذا، فواجبنا الآن هو السعي على المستويين الفردي والجماعي لتحقيق ما ينتظره العالم الإسلامي، بل الإنسانية كلها معنا"[1].

– من الملاحظ إحاطة المؤلف بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يُرشد لذلك تنوع مصادره وتعدد مراجعه، فهو كثيراً ما يذكر للحدث الواحد أكثر من رواية، ليستخرج منها معنى محدداً، أو يثبت من خلالها حقيقة تاريخية معينة تتعلق بسيرته صلى الله عليه وسلم. كما يلاحظ أيضاً أن المؤلف –رحمه الله– كان على اطلاع واسع على المرويات الحديثيَّة لرسول الله عليه الصلاة والسلام. وأيضاً فهو على إحاطة بسيرة صحابته رضوان الله عليهم، وسيرة مَنْ بعدهم من التابعين وتابعيهم رحمهم الله تعالى، يُنبئك بهذا، ذكره العديد من الروايات المتعلقة بحياة الصحابة رضي الله عنهم، وسيرتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثناء حياته وبعد وفاته، وقل مثل ذلك في أمر التابعين.

– يجتهد المؤلف في أن يلتزم موضوعه في ذكر أحداث السيرة وتحليل وقائعها، ويحرص أشد الحرص على عدم الخروج عن مساره الذي رسمه لنفسه، فتراه يقول مرة: "فلن ندخل في هذا الموضوع"[2]، ويقول تارة: "ولم ندخل إلى هذا الموضوع إلا بصورة غير مباشرة...وكل أملي وتطلعي هو قيام أهل الاختصاص بتناول هذه المواضيع، وشرحها بشكل وافٍ"[3]، ويقول أخرى: "كان بإمكاننا تناول هؤلاء بالبحث لولا أننا رأينا ما ذكرناه يكفي من ناحية الموضوع الذي تناولناه"[4].

– عدم التوسع في موضوع سبق له أن تناوله في كتاب سابق؛ تفادياً للتكرار، وحرصاً على وقت قارئه، ففي أثناء حديثه عن الأسس الإنسانية التي يقوم عليها الجهاد في الإسلام، لا يتوسع في الحديث عن هذه الأسس، بل يكتفي بالإحالة على كتاب خاص له في هذا الموضوع، "ولأنني قمت بتحليل هذا الموضوع العميق والواسع في كتاب سابق، فإنني أكتفي هنا بهذا القدر، وأحيل القراء إلى ذلك الكتاب"[5].

– يفسر المؤلف الكثير من أحداث السيرة النبوية تفسيراً منطقياً وواقعياً؛ ففي سياق الحديث عن تعدد رسول الله صلى الله عليه وسلم للزوجات، يُقدِّم تفسيراً منطقياً ومقنعاً لهذا التعدد؛ وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم "كان عليه أن يختار زوجات يستطعن تحمل عبء مسؤولية

---

[1] السابق: 208. ويُنظر أيضاً: السابق: 233، 317، 392.

[2] السابق: 281.

[3] السابق: 336.

[4] السابق: 727. ويُنظر أيضاً: السابق: 677.

[5] السابق: 394. والإشارة هنا إلى كتاب للمؤلف تحت عنوان (الجهاد أو إعلاء كلمة الله) ولم يُترجم بعد.

أمومتهن للمؤمنين، وكان مصيباً تماماً في اختياره...فقد أصبحن مرشدات ومعلمات، وخدمن الإسلام خدمة كبيرة، وقمن بوظيفة التبليغ والإرشاد للعديد من الرجال العظام الذين ازدحموا على أبوابهن...فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يختار المرأة التي ستكون في المستقبل مرشدة، ويهيئ لها إمكانية التعلم في بيته، وإمكانية التعليم بحيث تصبح من ورثة دعوة النبوة في المستقبل"[1].

– يستثمر المؤلف نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة؛ ليؤكد أن النصر لأهل القرآن، وأن العاقبة لأمة الإسلام؛ فعند حديثه عن تربية الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته الكرام رضي الله عنهم، يذكر قوله عز وجل: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (الجمعة:2)، ويُعقِّب بعدُ بقوله: "وكما استطاع القرآن أن يحتضن جماعة وأمة، ويرفعها إلى مستوى إنساني رفيع، فإنه يستطيع إنجاز الشيء نفسه للأجيال القادمة. أما الأفكار الموجودة حالياً، والتي يقدمونها كأفكار جديدة وجذابة، فمصيرها إلى الانطفاء واحدة بعد أخرى...وبالرغم من كل هذا الظلم والاستبداد والتسلط، يسري الروح الإسلامي إلى أرجاء المعمورة روحاً يانعاً نضراً، يتسلل إلى القلوب، وتنبهر به الأنظار"[2].

– احترام المؤلف لأئمة المذاهب جميعاً، فهو لا يتعصب لإمام دون إمام، ولا يقلل من قيمة إمام لحساب آخر، بل الكل عنده سواء محترم ومعتبر، والكل تخرج من مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ولما كان "العالم كله يسبح في الظلام فاقداً أمله حتى من بزوغ الفجر الكاذب، كان هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين نوروا الإنسانية والعالم ينشؤون في مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهؤلاء العلماء الأعلام الذين نوروا لعالم بعلومهم وعرفانهم، كانوا في الذروة من علومهم"[3].

– يلاحظ على المؤلف –وهو يخاطب من خلال كتابه هذا المسلم وغير المسلم– أنه يدعم أفكاره بأقوال لعلماء غربيين؛ من جهة مصداقية هؤلاء في ذهن القارئ عموماً؛ فعندما يتحدث عن إسهامات المسلمين في مجال العلوم الطبيعية، تراه ينقل عن (أديسون) مخترع الكهرباء قوله: "لقد تعلمت الطريق المؤدي إلى الكهرباء من كتاب الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي"[4]. وعندما يتحدث عن عصمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ينقل على (وليام موير) قوله: "إن محمداً شخصية ممتازة، ومثال للفضيلة... لم يقترف طوال حياته أمراً يستنكف عنه أي رجل فاضل...بينما استطاع هو أن يؤسس، وأن يهدم دولاً، وفي أثناء معترك حياته الحافلة، حافظ على فضائله، وعاش

---

[1] النور الخالد، مرجع سابق: 358.

[2] السابق: 307-308.

[3] السابق: 337.

[4] السابق: 339.

حياة نظيفة نقية"[1].

– يفسر المؤلف أحياناً بعض أحداث السيرة تفسيراً لطيفاً، يجد العقل له مساغاً وقَبولاً؛ كما فعل عند حديثه عن استخدام الرسول صلى الله عليه وسلم الكفاءات في المكان المناسب، فهو يرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعامل مع كل واحد من صحابته معاملة خاصة، "فلم يأمر مثلاً أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بالهجرة إلى الحبشة، ولم يأمر كذلك عليًّا وزبيراً؛ لصغر سنهما؛ لأن أمثال هؤلاء كانوا من الذين يستطيعون تحمل ما يجري في مكة. كان عثمان بن عفان رضي الله عنه ذا بِنية ضعيفة، وكان من الصعب عليه أن يتحمل الجو القاسي الذي كان يعصف في مكة، ثم كان هو أفضل من يستطيع حماية المسلمين في الحبشة؛ لذا كلفه الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المهمة، وأرسله إلى الحبشة"[2].

ويعلل عدم انهزام خالد رضي الله عنه في معركة (أُحد)؛ بأن "الله تعالى حافظ على صفة الانتصار الدائم لخالد بن الوليد، الذي قدَّم فيما بعد خدمات جليلة للإسلام، وهذا كان يعني مكافأة عاجلة لحسناته الآجلة...فلو هُزم خالد في هذه المعركة لكان من الممكن ألا يستطيع خدمة الإسلام بتلك الروح العالية"[3]. وليس يخفى وجه اللطافة في هذه التفسيرات لبعض أحداث السيرة.

– الدفاع عن الصحابة الكرام، والردُّ على من يقدح بمكانتهم، فعند تحليله لأحداث غزوة (أُحد)، لم يُحمِّل نتيجة تلك الغزوة للرماة الذين خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتركوا الجبل، ونزلوا إلى ساحة المعركة للمشاركة في الحصول على الغنائم، بل قرر أنه "لا نرى في أنفسنا صلاحية وحق نقد هؤلاء الصحابة الأجلاء، فهم أولاً قد شُرِّفوا برتبة المقربين، والمقربون لهم مستوى خاص من التعامل..."[4]. ويقول في موطن آخر: "وأي قدح في حقهم لا يليق بأي مسلم؛ لذا فلا نستطيع نحن صرف أي كلام غير مناسب في حق الصحابة، مثلما فعل منتسبو بعض المذاهب الباطلة بالأمس، أو مثلما يفعل الآن بعض المستشرقين"[5].

– يضع المؤلف عناوين معاصرة لأحداث السيرة، وهذا واضح في العديد من عناوين الكتاب، من أمثلة ذلك إطلاق عنوان "شبكة الاستخبارات"[6] على العيون التي كان يرسلها رسول الله صلى

---

[1] السابق: 503.

[2] السابق: 353–354. ويُنظر أيضاً: السابق: 442، 677.

[3] السابق: 459.

[4] السابق: 366.

[5] السابق: 696. ويُنظر أيضاً: السابق: 452، 458، 485، 487، 697، 703، 705، 714.

[6] السابق: 407، 413، 417، 438، 444، 500.

الله عليه وسلم لرصد تحركات الأعداء. ومن هذا القبيل أيضاً إطلاق عنوان "الجيش النظامي"[1] على العناصر المقاتلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويطلق عنوان "الإستراتيجية المتغيرة"[2] على الخطط التي كان يضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم للمعارك التي كان يخوضها.

– يمهد للموضوع الذي يريد الخوض فيه؛ وذلك ببيان مرتكزاته، ودفع ما يعتريه من شبهات؛ فقبل الحديث عن جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم العسكري، يبدأ بتحديد مفهوم الجهاد في الإسلام، ومراحله التاريخية؛ إذ "من المفيد التوقف قليلاً حول العهد الذي شُرع فيه الجهاد. ومن المهم جداً معرفة المعنى العام للجهاد من جهة، ثم معرفة تاريخ بدء الجهاد المادي، أي الأمر بالقتال من جهة أخرى؛ ذلك لأن أعداء الدين يقومون بتشويه معنى الجهاد، كما أن بعض الأصدقاء الجاحدين يقومون بخلط التواريخ؛ لذا فلا أرى بداً من القيام بتوضيح بعض الأمور لكلا الجانبين"[3].

– مقارنة بين ما جرى في عهده صلى الله عليه وسلم من الظلم والحيف وعدم وجود النصير والمُدين للممارسات الهمجية التي كانت تُرتكب في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وبين ما يجري من انتهاكات في حق المسلمين اليوم، فعلى الرغم من الهمجية التي تُرتكب في حق المسلمين في كثير من بقاع المعمورة اليوم، إلا أننا نجد من يُنكر هذه الجرائم ويشجبها بقوة، بل ويسعى لإدانة مرتكبيها[4].

– استخراج نتائج أحداث السيرة، نلحظ هذا المسلك بعد الحديث عن سرايا الإسلام الجهادية، حيث يذكر نتائج تلك السرايا[5]. وبعد الحديث عن الجانب العسكري في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يذكر "أننا نظرنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الزاوية، وعلمنا أن الشخص الوحيد الذي توفرت فيه كل هذه الصفات، وليس هناك أي شخص آخر استطاع الاقتراب منه لكي نتخذه مقياساً في هذا الأمر، ونصل من هذا إلى نتيجة مفادها أن خصال الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته كانت في الذروة"[6].

– تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة المتعلقة بأحداث السيرة، فقد شاع عند كثير من الناس أن (الحج الأكبر) هو إذا صادف يومُ عرفة يومَ الجمعة، أما إذا صادف يوم عرفة غير يوم الجمعة فهو

---

[1] السابق: 428.
[2] السابق: 457، 486، 505. ويُنظر أيضاً: السابق: 438، 449، 459، 477، 495، 496، 499، 507، 569.
[3] السابق: 391.
[4] يُنظر: السابق: 411، 418، 493.
[5] يُنظر: السابق: 416-420.
[6] السابق: 503.

(الحج الأصغر)، والمؤلف يصحح هذا الفهم الشائع، فيقرر أن المراد بــ (الحج الأكبر) هو الحج عموماً، و(الحج الأصغر) هو العمرة[1]. وكذلك صحح المؤلف مفهوم (العصمة)؛ فهي لا تكون إلا للأنبياء، ولا تكون لغيرهم، كما يذهب إلى ذلك الشيعة الاثنى عشرية، ويذكر في هذا الصدد، أن الأولياء المقربين غير معصومين، فهم من الناحية النظرية قد يقعون في بعض الذنوب والآثام، بيد أنه من الناحية الواقعية لا نقف لهم على أي ذنب؛ لأن الله سبحانه حفظهم بعنايته من ارتكاب الذنوب، وكلاءهم برعايته من الوقوع في الآثام[2].

– تقرير بعض القواعد الشرعية، والأصول الكلية، من ذلك ما ذكره تعقيباً على قوله صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون...)، قال: "الإنسان يجب أن يسعى في موضوع الإسلام والإيمان ليس إلى الإسلام أو الإيمان الاعتيادي، بل إلى مراتبها العليا، ويضع الحب والشوق في القلوب لبلوغ هذه الغايات"[3].

– يوجِّه الآيات القرآنية التي ظاهرها عتاب الرسول صلى الله عليه وسلم توجيهاً لطيفاً ومقبولاً؛ كقوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ (الأنفال:67)، فاجتهاد الرسول عليه الصلاة والسلام بإطلاق أسرى بدر اجتهادٌ حسن، "لكن هناك اجتهاد أفضل وأحسن، أي إنكم اجتهدتم، وأخذتم الحسن، وغاب عنكم الأحسن الذي يريده الله تعالى منكم"[4]. والمؤلف يوجه كل الآيات التي على هذه الشاكلة بما لا يقدح بمقام النبوة المحمدية[5].

– يدافع المؤلف عن سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم دفاعاً مستميتاً، يرشد لذلك أنه ألحق بكتابه المخصص لبحث أحداث السيرة النبوية ملحقاً، تناول فيه أبحاث السُّنَّة من حيث تعريفها، وأنواعها، ومكانتها، ودفع الشبهات عنها[6].

– يتفاءل المؤلف بمستقبل الأمة والإسلام، ويقلل من أمر المعادين لدين الإسلام، وينبِّه على خططهم ودسائسهم، استمع إليه وهو يعبر عن هذا التفاؤل: "دخلت الدنيا إلى عهد من التغيير والتبدل السريع، سقطت النظم التي كانت تعادي فطرة الإنسان وتخالفها في مزبلة التاريخ، وبدأت الإنسانية تفيق وترجع إلى الدين من جديد، بل تعدو نحوه عدواً...كان من الطبيعي أن ترجع أمة

---

[1] يُنظر: السابق: 478.

[2] يُنظر: السابق: 519. ويُنظر أيضاً: السابق: 555، 574، 579.

[3] السابق: 200. ويُنظر أيضاً: السابق: 534.

[4] السابق: 556.

[5] يُنظر: السابق: 561، 564، 567، 572، 575.

[6] يُنظر: السابق: 568، 659، 660، 662، 663، 666، 729.

محمدٍ إلى نبيها بعد أن بقيت سنوات طويلة حائرة هنا وهناك في ديار الغربة والضياع"[1]. وبالمقابل يُنبِّه على مخططات الأعداء، ففي "هذه الأيام تجري المحاولات لوضع البدائل للأنظمة الوضعية، التي سبق وأن جاءت في ظل دعاية مكثفة، واحتفالات صاخبة...إذ كما حاولوا في وقت من الأوقات إظهار (باسكال) و(برغسون) بديلاً عن موسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وذلك تحت اسم الحياة المعنوية، فاليوم يحاولون وضع فكرة استحضار الأرواح، وفكرة الأرواح بديلاً عن الدين"[2].

– الأدب في الرد على الخصوم، فهو لا يعادي من يخالفه الرأي والفكر، ولا يطلق لسانه في الرد عليه، بل يجادله بالتي هي أحسن، ويدفع قوله بالتي هي أقوم، يُلحظ هذا المسلك عند المؤلف في أثناء حديثه عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه، فبعد أن يذكر من صفاته، وأعماله ما يذكر، يُنهي حديثه بقوله: "أجل، إن المؤمنين يحبون أبا هريرة، أما من لا يحبه، فندع حكم ذلك للقارئ"[3].

– الاعتذار لمواقف الصحابة رضي الله عنهم، فهو يعتذر لعزل أبي هريرة رضي الله عنه من الولاية من قِبَل عمر رضي الله عنه بأنه كان يشتغل بالتجارة للتكسب والإنفاق على عياله، ولم يجمع المال من طريق الرشوة، أو طريق سوء استغلال سلطته السياسية، بل جمعه بعمله وكده[4].

ويعتذر لعلي رضي الله عنه عندما اعترض على أبي هريرة رضي الله عنه لقوله فيما يرويه من الأحاديث: (أوصاني خليلي...)[5]، و(سمعت خليلي...)[6]، فمثل هذا القول من أبي هريرة رضي الله عنه لم يلق قبولاً لدي علي؛ "لأنه لم يجده ملائماً، ثم إنه لا يُستغرب من أي شخص أن يصف شخصاً حبيباً إلى قلبه بأنه كان خليله، ولكن شخصاً مثل عليٍّ رضي الله عنه، الذي نشأ في حِجْر النبوة، والذي كان من أسبق السابقين إلى الإسلام، يستطيع قول هذا لأبي هريرة رضي الله عنه؛ فبين الأنداد والأمثال يمكن جريان مثل هذا الحديث والعتاب، ولكن لا يحق لأحد أدنى منهم أن يتفوه

---

[1] السابق: 613.

[2] السابق: 513. ويُنظر أيضاً: السابق: 614، 662، 665، 679.

[3] السابق: 700.

[4] يُنظر: السابق: 702.

[5] الحديث رواه البخاري في كتاب الكسوف، باب: صلاة الضحى في الحضر، رقم (1107)، ورواه أيضاً في كتاب الصوم، باب: صيام أيام البيض، رقم (1845). ورواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: استحباب صلاة الضحى، رقم (1182). ونصُّ الحديث: (أوصاني خليلي بثلاث، لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر).

[6] الحديث رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب: تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم (368). ونصُّ الحديث: (سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء).

بمثل هذا الكلام في حقهم. ثم إن عليًّا رضي الله عنه لم يقل هذا الكلام بقصد الطعن بأبي هريرة رضي الله عنه؛ لذا فتفسير مثل هذا الكلام كطعن به يعني عدم معرفة ما هو الطعن، وما هو ليس بطعن"[1]. وهكذا، فهو في موطن يجد فيه طعناً بالصحابة الكرام أو غمزاً بهم، يهب للدفاع عنهم، وتوضيح حقيقة الأمر في حقهم.

– ونجد مثل هذا الدفاع أيضاً عن التابعين، أمثال اليعقوبي والزهري، ومَنْ بعدِهم من الأئمة الأعلام، أمثال أبي حنيفة[2].

– لا يسترسل المؤلف في المسائل والقضايا التي سبق لغيره من الكُتَّاب أن عالجها، بل يحيل إليها، يُلحظ هذا المسلك في أثناء رد الشبهة المتعلقة بالسيدة عائشة رضي الله عنها، كونها روت الكثير من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعد أن دفع هذه الشبهة باختصار شديد، أردف قائلاً: "ولكون كثيرٍ من المحققين العظام كتبوا كل شيء عنها، فإني أحيل القراء إليهم"[3].

تلك إذن معالم المنهج الذي سلكه الأستاذ فتح الله كولن في تأليفه لكتاب (النور الخالد: محمد مفخرة الإنسانية). فلننظر بعدُ في مسلك الأستاذ محمد إبراهيم الصادق عرجون في كتابه (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم).

ثالثاً: كتاب (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة–بحث وتحقيق)

إذا يممنا الوجه صوب كتاب (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ورسالة–بحث وتحقيق) للأستاذ محمد الصادق إبراهيم عرجون، فإننا نجد معالم هذا السِّفر العلمي على النحو التالي:

– تدقيق المؤلف النظر في روايات السيرة لمعرفة صحيحها من سقيمها، ونقد جهود المتقدمين في التعامل مع نصوص السيرة من غير اعتماد منهج النقد والتمحيص. ومن ثَمَّ فإن المؤلف يؤكد على حاجة الروايات إلى دقة النظر الناقد؛ لتمييز الصحيح من الزائف[4].

ونمثل لهذا المسلك بما ذكره المؤلف من روايات تتعلق ببدء هجرة النبي صلى الله وسلم من مكة إلى المدينة، فيذكر المؤلف أن رواية البخاري لهذه القصة هي أصح ما روي في بدء الهجرة النبوية، ويذكر بعض الروايات الواردة في هذا الباب، ثم يقول: "وهذا الاختلاف في الروايات

---

[1] السابق: 703. ويُنظر أيضاً: السابق: 704.

[2] يُنظر: السابق: 705، 725–726.

[3] السابق: 712.

[4] يُنظر: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج رسالة بحث وتحقيق: محمد الصادق إبراهيم عرجون. دمشق: دار القلم، ط2، 1415هـ–1995م.: 238/1.

المتعددة يسدل على الموضوع ستاراً من الغموض يتطلب في الكشف عنه تتبع الروايات بالنظر والموازنة والمقاربة؛ ليجعل منها صورة متوافقة لخط السير الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من بيته..."[1]، ونقف للمؤلف في هذا الموضوع على عبارات مثل: "...وهذا التساؤل مرَّ على ذهن بعض حذاق قدامى الكاتبين في السيرة النبوية..."، وكقوله: "...ومما يتعارض مع حديث الإمام أحمد الذي اعتبره الزرقاني جواباً عن تساؤل صاحب النور ما ذكره الزرقاني نفسه عن الدمياطي..."، وقوله: "ومن غريب ما وقع في (فتح الباري) وسبقه إليه صاحب (العيون)...ما قاله الحافظ..."، وقوله: "ومن أغرب الروايات ما ذكره الحافظ في (الفتح)، قال..."[2].

والمؤلف ينتقد بشدة رواة السيرة الذين كانوا يرون أخبار السيرة من غير تدقيق ولا تمحيص في أسانيدها، فاستمع إليه وهو يصف ابن إسحاق جامع السيرة بأنه: "جمَّاع للروايات، حَفَّاظ للقصص والحوادث ووقائع السيرة التي كانت، ولعلها لم تكن، فهو أشبه بتاجر يجمع المواد، ويعطيها لمن أراد استخدامها في مقاصده وأغراضه، ولا يعنيه وراء ذلك صحة ما يرويه إسناداً"[3]. وأنت أخذ المؤلف على عاتقه في كتابه تَتَبُّع روايات السيرة، ونقدها، وتمحيص صحيحها من سقيمها.

ونحسب أن هذا المسلك –مسلك نقد الروايات وتمحيصها– أهم ما يميز هذا الكتاب عن غيره من كتب السيرة، حيث وفق المؤلف في منهجه هذا إلى حد كبير، فمحص العديد من روايات السيرة.

– منهج المؤلف في كتابه أن لا يقصد إلى استقصاء الروايات، ولا يستهدف استيعابها؛ لكثرتها واشتمالها على الصحيح والسقيم من الواقع والأحداث، وفيها الموجز المخلُّ، وفيها المسهب المملُّ، الذي يستغرق فراغاً من البحث دون أن يكون فيه ما يحقق هدف المؤلف من بحثه. ويتجلى هذ المنهج عند المؤلف في أثناء حديثه عن الوفادات العربية على النبي صلى الله عليه وسلم بعد انتصاراته المدوِّية، فقد ذكر أن كل من "ألَّف في السيرة النبوية، ودون أحداثها، وجمع أحاديثها من القدامى على طريقهم في تجميع الروايات، لم يغفل أحد منهم الحديث عن هذه الوفادات بين مقل مجحف، ومكثر مستنـــزف، ومتخير توسط فوفِّق. بيد أنها في جملتها كانت تعوزها دقة البحث، والنقد المميز بين الغث والسمين، وقيامها على دعائم البحث والتحقيق، وكانت أميل إلى النقل، ومتابعة الخالف للسالف اعتماداً على كثرة الحفظ والأسانيد، وكثرة الحفظ لم تكن قط في الحياة العلمية الإسلامية

---

[1] السابق: 502/2.

[2] السابق: 506/2–507. ويُنظر نحو هذا المنهج: السابق: 434/2، 472، 482، 505، 524، 584، 14/3، 180، 218، 225، 390، 123/4، 129، 500، 542.

[3] السابق: 36/4.

في موازين البحث والتحقيق، بل كانت في أكثر أحوالها أبعد عن الضبط والتمحيص. ومن ثَمَّ اختلفت مؤلفاتهم بين الإيجاز الرامز، والإطناب المستطرد، وكان الإيجاز ظاهرة كُتب المحدثين، كـــ "الصحيحين"، فهما من أوجز مصادر السُّنَّة عامة، وباب الوفود خاصة، وكان الإطناب المستطرد ظاهرة كتب المغازي والطبقات، والتجميع للتكثير في الروايات"[1]. وهذا المسلك عند المؤلف من مزايا هذا الكتاب، حيث لم يعول في ذكر أحداث السيرة إلا على الروايات التي صح سندها، و لم يخالف متنها ما هو ثابت شرعاً أو عقلاً.

– تحذير المؤلف من الانزلاق في قبول أغلاط الأكابر، ودعوته إلى تصحيح أغاليط التاريخ، وعبارته المفتاحية هنا، هي "قد يغلط الثقة"[2]. استمع إليه وهو يؤصل لهذا المسلك بقوله: "وقد تحسن المقاصد والنيات، وتخطئ الأفكار والتصورات، وأغلاط الأكابر كبائر معفوة؛ حملاً لها على سلامة القصد، ولكن لا يجوز –ديناً وعقلاً– أن تترك الأغلاط تمشي إلى عقول الناس وقلوبهم، فتنهز عقائدهم، وتعرض إيمانهم لأعاصير الشكوك والريب، وتفتح للمتقولين على الله ورسله، الجاحدين للديانات من أعداء الحق والخير...أبواب المطاعن، والأباطيل، ومنافذ لتشكيك الذين لم تنفذ عقولهم إلى أعماق التفقه في فهم رسالات السماء، من الشباب الغض الذين لم يتح لهم دراسة دينية واعية، من أنصاف المثقفين الذين أخذوا ثقافتهم عن الملاحدة الملفقين"[3].

– عدم الاعتداد بصحة السند وحدها، بل لا بد من النظر في مضمون المتن، ومعرفة مدى توافقه مع النصوص الشرعية الأخرى، وعدم مصدامته لها[4]. نلحظ هذا المسلك في نقده لبعض الروايات التي يذكرها المفسرون حول سبب غزوة تبوك، فينقل عن ابن كثير رواية حاصلها أن اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم! إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر، وأرض الأنبياء، فصدَّق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة الإسراء، فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث. وقد علق ابن كثير على هذه الرواية بقوله: "وفي هذا الإسناد نظر، والأظهر أنه ليس بصحيح"، وعقَّب المؤلف على قول ابن كثير بقوله: "وهذا من حذق ابن كثير وبراعته في الروايات سنداً ومتناً، في كثير مما ينقل في تفسيره وتاريخه"[5]. ثم أخذ المؤلف في نقد الرواية من جهة المتن، وختم نقده لها بقوله: "وهذا النحو من الروايات الساقطة، التي لعب بها اليهود

---

[1] يُنظر: السابق: 4/499–500. ويُنظر أيضاً: السابق: 2/361–364.

[2] السابق: 1/366.

[3] السابق: 1/305.

[4] السابق: 4/426، 467–468.

[5] السابق: 4/425.

والملحدون أدواراً عصيبة في تشويه الإسلام، لا يزال ضررها جاثماً ينفث سمومه، إن لم يتداركه أهل العلم من العلماء بتبيان ما فيه من زيف وخبث وأباطيل، كُذب بها على دعوة الإسلام، وقَبِلَها البُله من أهل الغفلة المتعالمين"[1].

– التوفيق بين روايات السيرة التي ظاهرها التعارض؛ مثال هذا المسلك ما ورد من أخبار تفيد أسبقية خديجة رضي الله عنها وبناتها من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام، وأسبقية علي رضي الله عنه، وزيد بن حارثة، وروايات أُخر تفيد بأسبقية أبي بكر رضي الله عنه إلى الإسلام. والمؤلف لا يرى تعارضاً بين القولين؛ لأن إسلام أسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إسلام فطرة، ولدت في مهد الإيمان، ونشأت في أحضان النبوة...أما إسلام أبي بكر رضي الله عنه فكان إسلام أول رجل حرٍّ مكلف، مدعوٍّ إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله، والتصديق برسالته، وكان إسلامه إسلام أول رجل حرٍّ مكلف، بلَّغه النبي رسالة ربه، فهو إسلام استجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وتبليغه رسالته. أما ما ورد في بعض الروايات من دعوة لعلي رضي الله عنه إلى الإسلام، وتوقفه بعض الشيء، ثم أسرع إلى الإجابة، فبحسب المؤلف لم تثبت صحة تلك الروايات، وعلى فرض صحتها، فهي من قبيل التثبيت والمساندة[2]. وعلى وَفْق هذا السَّنَن يوفق المؤلف بين أخبار السيرة التي ظاهرها التعارض[3].

– تضعيف بعض الروايات المشهورة، من ذلك تضعيفه الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد، وهو دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم أعزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب)[4]. فقد ضعَّف المؤلف هذا الحديث من عشرة أوجه[5]. ومن ذلك أيضاً تضعيف الرواية الواردة في سريَّة القراء، والتي تزعم أن قرآناً نزل على النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأه الناس، ثم نُسخ بعدُ، ومما قاله في هذا الصدد: "ومن أعجب العجب، وأغرب الغريب هذا التباعد المترامي الأطراف بين رجال السند في فضلهم وعلمهم وفقههم في دين الله، وبين موضوع الروايات التي رويت بأسانيد هؤلاء الأجلاء الذين اتخذهم الأمة ركائز لأخذ دينها ودعامات يعتمد عليها نقل الدين والشريعة في أسلوب نقيٍّ مصفًّى من الخرافات والأساطير وأقاصيص القصاص"[6].

---

[1] السابق: 427/4.

[2] يُنظر: السابق: 515/1-517.

[3] يُنظر: السابق: 529/1، 570، 351/2.

[4] الحديث رواه الترمذي في "جامعه"، كتاب المناقب، باب: في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم (3614). قال الترمذي: حسن صحيح غريب. ويُنظر: السابق: 611/1.

[5] تُنظر هذه الأوجه في: السابق: 612/1-627.

[6] السابق: 71/4. ويُنظر أمثلة وفق هذا المسلك: 327/4، 342، 371، 574.

– الترجيح بين روايات السيرة، والمثال الأبرز على هذا المسلك، ما جاء من روايات في وقائع الإسراء والمعراج، حيث وردت عدة روايات بعضها في "الصحيحين" فيها بعض اختلاف، وبعضها في غيرهما فيها اختلاف أوسع وأعمق وأكثر أحداثاً ووقائع، وبعد أن ذكر بعضاً من روايات "الصحيحين"، وروايات غيرهما، قال: "هذا الاختلاف العريض في سياقات الأحاديث، وأساليبها، وأحداثها، ووقائعها بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير لا يكفي فيها، ولا يشفي ظمأ المتطلعين إلى حقائق العلم والدين ما حاوله بعض العلماء من التوفيق بينها؛ لأن بعض الاختلافات تدخل في صميم الحقائق التي اشتمل عليها حادث الإسراء والمعراج...ومن ثمَّ، لم نتتبع الجزئيات جزئية جزئية؛ لأننا وجدنا النفي والإثبات قد يتعاوران بعض الجزئيات، وليس في أيدينا ما نرجح به بعض الروايات على بعضها الآخر، ووجدنا أن هذا التتبع يطول من غير طائل...لذلك آثرنا أن نكتفي من هذه الروايات برواية من صحيح مسلم، جاءت جامعة بين وقوع الإسراء والمعراج في ليلة واحدة في سياق محرر سوِّي الترتيب، ثابت الوقائع والأحداث، على ما هو اتفاق جمهرة المسلمين من السلف والخلف"[1]، ثم ذكر رواية مسلم بطولها.

وهذا مثال من أمثلة كثيرة، سلكها المؤلف للترجيح بين روايات السيرة، وهو مسلك اعتمده المؤلف للوصول إلى أكبر قدر من حقائق أحداث السيرة ووقائعها[2].

– للمؤلف وقفات قيِّمة في تفسير وتحليل بعض الآيات القرآنية، نُمثل لذلك بقصة فداء أسرى بدر في القرآن الكريم، وموقف النبي صلى الله عليه وسلم من أحداثها، فقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ (الأنفال:67)، فقد ذكر المؤلف أن هذه الآية تعالج أثراً من أهم آثار الحرب بين المجتمع المسلم وأعدائه الكافرين، وهو أثر تأصيلي لتشريع دائم في حياة المجتمع المسلم ما بقي هذا المجتمع قائماً بواجبات تكاليفه القيادية في نشر رسالة الهدى والحق.

بعد هذا التمهيد، ذكر المؤلف أن الذي ذهب إليه أكثر المفسرين، أن الكلام في صدر الآية على حذف مضاف، فقال: أي ما كان لأصحاب نبي، أو لأتباع نبي، ومعناه: أن الذين قصدوا أن يكون لهم أسرى يأخذون منهم الفداء هم المحاربون، الذين تعجلوا إنهاء المعركة، وشغلوا بجمع الغنائم وأسر الرجال عن الإثخان بكثرة القتلى والجراحات. وقد قال القرطبي: وهذا القول هو الذي لا يصح غيره.

---

[1] السابق: 2/361–364.

[2] يُنظر أيضاً حول مسلك الترجيح بين الروايات: السابق: 4/193، 254، 327، 335، 372، 429، 457، 464، 575.

ووافق المؤلف ما ذهب إليه أكثر المفسرين من حيث المراد، بَيْد أن مأخذه الذي بنى عليه مراد الآية لم يكن قائماً على تقدير محذوف في الآية، وإنما كان قائماً على أن الآية إعلام من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بسنة من سنن الأنبياء في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وهي أنهم صلوات الله عليهم كانوا لا يتعجلون إنهاء المعارك قبل أن يثخنوا في الأرض بكثرة القتل في أعداء الله، وأعداء دينه الحق الذي بعث به أنبياءه، قبل أن يبلغوا بهم إلى توهين شوكتهم بالمبالغة في القتل والجراحات المعجزة لهم عن التحرك لقتال متجدد، يوافقون فيه جند الحق؛ لتعويق مسيرة الدعوة إلى الله. فالآية نفي وتنــــزيه لساحة النبوة أن يقصد المتحلي بها أن يكون له أسرى يستحييهم، ويُبقي عليهم قبل أن يُعجز جمهرة محاربيهم عن التفكير في معاودة قتال جند الله المجاهدين في سبيله لإعلاء كلمته.

ويُنهي المؤلف تحديده لمراد الآية بقوله: نقف مع رأي جمهور المفسرين من وجوب بقاء الآية على ظاهرها، تقصد إلى الإخبار بأسلوب النفي والتنــــزيه الذي يفيده قوله: ﴿ما كان﴾ عن سنة من سنن الأنبياء في جهادهم القتالي؛ لإعلاء كلمة الله تعالى، وتُخبر في ضمن ذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم مثلهم في هذه السنة الحميدة، منفيٌّ عنه غير منــــزه عن أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، وبهذا الفهم المستقيم تبقى الآية في وضعها، وأسلوبها القرآني، لا يُشتمُّ منها رائحة عتاب للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يقع منه قط ما يستوجب العتاب، وإنما الذي وقع كان من أصحابه الذين توجه إليهم من العتاب ما توجَّه؛ لأنهم تسببوا في أن النبي صلى الله عليه وسلم يكون له على خلاف شأنه، ومقامه أسرى قبل أن يثخن في الأرض[1].

وأنت واجد للمؤلف مثل هذه الوقفات التفسيرية القيِّمة في مواطن كثيرة من كتابه، لا يُسعف المقام بذكرها[2].

– للمؤلف جولات وصولات مع المفسرين، ومثال هذا المسلك على صلة بآية فداء أسرى بدر في المثال المتقدم. فقد نقل المؤلف عن القرطبي أن الحكمة من ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الآية حين لم ينهَ عن استبقاء الرجال وأسرهم حين رآه من العريش، وذكَّره سعد بن معاذ به، ولكنه عليه السلام شغله بَغْتُ الأمر، ونزول النصر، فترك النهي عن الاستبقاء.

بيد أن المؤلف يرى أن كلام القرطبي في بيان حكمة عدم نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن استبقاء الرجال، وأخذهم أسرى حين رآه من العريش لا يخلو من نظر؛ لأن زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم شغلته المفاجأة، ونزول النصر عن الأمر بعدم إنهاء المعركة، واستبقاء الرجال، لا يوائم

---

[1] يُنظر: السابق: 497/3، 499، 508.

[2] يُنظر أمثلة على هذا المسلك: السابق: 589/1، 162/2، 246، 526، 199/4، 222، 368.

مقام القيادة في الحرب، ولا سيما إذا كان القائد هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا كان الأمر يتعلق بسنة من سنن الأنبياء، لم تقع من واحد منهم قبله صلى الله عليه وسلم، فأحرى ألا تقع من أصحابه، فتنسب إليه، وليس في أمر النصر بَغْتٌ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم باشر أسبابه وتوقعه، وكان على علم تام به.

ومن ثَمَّ، يرى المؤلف أن حكمة ترك النبي صلى الله عليه وسلم النهيَ عن استبقاء الرجال أنه صلى الله عليه وسلم خشي إن نهى عن استبقاء الرجال بعد الأخذ فيه والشغل به أن يُحدث ذلك شيئاً من الاضطراب والفوضى في صفوف المسلمين، فتكون للمنهزمين من الأعداء جولة يرجعون فيها إلى المجاهدين المنتصرين شيء من فتور العزيمة، وقد رُدُّوا عن قصدهم ردًّا تضمن الأمر بقتل الرجال، وربما ينقلب اتجاه المعركة، فكان تركهم يأسرون الرجال بعد ما أصابوا منهم ما يحقق الإثخان أرجح في ميزان التدبير السياسي للمعركة حتى تبلغ نهايتها، والمسلمون متماسكون؛ لأن ذلك لم يخرج عن كونه لوناً من قهر العدو، وبسط سلطان النصر عليه، وإشعاره بذُل الهزيمة، وهذا هو المقصود من الإثخان في الأرض[1].

– تحقيق أقوال العلماء، ومناقشة مذاهبهم، والتوفيق بين أقوالهم؛ ومثال هذا المسلك ما روي من روايات في سريَّة بئر معونة، وهي بعثة القراء، حيث ورد في رواية "الصحيحين" أن عددهم سبعون رجلاً، وفي رواية ابن إسحاق وغيره من أصحاب السِّير أن عددهم أربعون رجلاً، وهذا فارق كبير جداً، لا يُعدل عن رواية "الصحيحين" إليه. وقد حاول ابن حجر أن يوفق بين رواية "الصحيحين" ورواية ابن إسحاق وغيره في تقدير عدد سريَّة القراء، فزعم أنه يمكن أن يكون الأربعون كانوا رؤساء، وبقية العدد أتباعاً، وقد تعقبه المؤلف بقوله: "وهذا كلام ضعيف واهن لا يدفع اعتراضاً، ولا يحل إشكالاً؛ لأن سريَّة القراء –وهم من صفوة أصحاب رسول الله صلى الله عيه وسلم– بما وصفوا به من نعوت الإخلاص ورسوخ اليقين والزهد في الدنيا وطرحها وراء ظهورهم، واشتغالهم بخدمة الفقراء والمساكين من إخوتهم...كل ذلك وغيره لا يجعل سبيلاً إلى تقسيم سريتهم إلى رؤساء وأتباع، وما كان يليق بالحافظ أن يعدل عن الأخذ بظاهر رواية "الصحيحين" إلى روايات أصحاب المغازي معها في الميزان، ثم يُعنِّي نفسه بمثل هذه التأويلات المتعسفة"[2]. فأنت ترى أن المؤلف لم يوافق ابن حجر فيما ذهب إليه من توفيق بين رواية "الصحيحين" وغيرها من الروايات، واعتبر ذلك منه رأياً ضعيفاً، مبيِّناً سبب ضعفه ووهنه.

---

[1] السابق: 502/3. ويُنظر أمثلة أخرى: السابق: 403/3، 501، 504–506، 511، 513، 529، 570/4.

[2] السابق: 61/4. ويُنظر أيضاً: 118/3، 552، 26/4–27، 28، 36، 54، 86، 88، 89، 98، 100، 110، 126، 127، 295، 311، 344، 142/4، 184، 185، 370، 377–379، 379، 382، 434، 491، 516، 523، 533، 535، 537، 540، 550.

– توظيف أحداث السيرة في واقعنا المعاصر، ففي أثناء الحديث عن المسجد الأعظم الذي بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، يتعرض المؤلف لقضية زخرفة المساجد والتغالي في بنائها، وأثر ذلك على انهيار القوة الروحية في بناء شخصية الأمة الإسلامية، وبدلاً من الاهتمام بالزخرفة ينبغي الاهتمام في بناء المرافق المهمة، كبناء المدارس والمعاهد والجامعات العلمية، ومدن الإسكان لطلاب العلم ورواد المعرفة، وإعداد بيوت للأساتذة والمعلمين من أهل الدرس والبحث، وإنشاء المشافي والوحدات الصحية، وإقامة المكتبات العامة، وإنشاء دور الضيافة لإيواء الفقراء والمعوزين وذوي الحاجة من أبناء السبيل، وإقامة دور كفالة اليتامى، وبناء الملاجئ لإيواء المشردين من أبناء الأمة.

وتأسيساً على ما تقدم، فإن المؤلف يطالب الحكومات المسلمة أن تكون قدوة للأفراد والجماعات في بناء المساجد على الوجه المشروع، وأن تبتعد عن زخرفتها وبهرجتها، وعليها أن تُلزم الأفراد والجماعات بالتزام ذلك، فلا تترك أحداً يخرج بالمسجد في بنائه عن تحقيق هدفين: الأول: التعبد لله تعالى...والثاني: البحث العلمي ودراسته، وتعليم رواد المسجد من طلاب العلم والمقيمين في أروقته ومساكنه علومَ الإسلام الشرعية ووسائلها من فنون اللغة والأدب، وعلوم الكون[1].

– تقرير قواعد كونية وسنن اجتماعية، من تلك القواعد: أن المجتمع المسلم إذا حقق "ما نيط به من قيادة الإنسانية ماديًّا وفكريًّا وروحيًّا بما عُلِّم، كان محققاً لموعود الله له بالنصر...ورُبط نصر الله تعالى لهذا المجتمع المسلم بنصر هذا المجتمع لله تعالى رسالته"[2]. ومن القواعد أيضاً، أن إقامة العدل بين الأفراد والجماعات والأمم والشعوب هو دعامة القيادة الموفقة[3]. ومن ذلك أيضاً ما ذكره من أن المؤاخاة عنصر اجتماعي في تركيب المجتمع المسلم، وقوة في تماسكه في كل زمان ومكان[4]. والمؤلف يقرر العديد من القواعد الكونية والسنن الاجتماعية في العديد من المواضع في كتابه[5].

– وضع عناوين ذات مضامين معاصرة، وهذا المسلك ظاهر في العديد من عناوين الكتاب، نجتزئ من ذلك العناوين التالية: "فرائد بدرية"[6]، يتحدث المؤلف تحت هذا العنوان حول جملة من الفرائد التي تضمنتها معركة بدر الكبرى، ويذكر المؤلف في هذا الشأن خمس فرائد. ومن العناوين

---

[1] السابق: 42/3. ويُنظر أيضاً: السابق: 83/3، 91، 561/4.

[2] السابق: 141/3، 142.

[3] يُنظر: السابق: 3/ 142.

[4] يُنظر: السابق: 163/3.

[5] يُنظر على سبيل المثال: السابق: 186/3، 192، 193، 194، 200، 215، 228، 249، 250، 254، 263، 274، 334، 339، 555، 616، 626، 5/4، 171، 489.

[6] السابق: 410/3.

قول المؤلف: "الفدائية الصامتة في هدوء لا يفقدها الشجاعة هي السمة العليا للمخابرات في منهج الإسلام"[1]. ومن ذلك أيضاً ما عنون له عند حديثه عن غزوة تبوك، حيث ذكر العنوان التالي: "في هذه الغزوة وُضعت قاعدة الحجر الصحي، وقاعدة التحصين ضد الأوبئة، وقاعدة الوقاية خير من العلاج"[2].

– تحليل أحداث السيرة والبحث عن الأسباب الكامنة وراء أحداثها، فعند الحديث عن المنهج النبوي للجهاد في الإسلام، استهل المؤلف حديثه بالحديث الصحيح، الذي ينص على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (كان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً...) الحديث[3]. ويحلل المؤلف هذا الحديث ليقرر بعدُ، أن الوصية التي تضمنها هذا الحديث، "تدل بأسلوب ديباجتها على أنها كانت هي منهج الدعوة إلى الله، التي التزمها قادة الجهاد في المجتمع المسلم؛ لأنها رسمت الإطار الذي تتجمع فيه صور الجهاد في سبيل الله، فكانت بذلك بياناً لمنهج الدعوة في نظامها الذي يحقق المقصود في شرعية الجهاد. الذي جعلته الوصية النبوية مراتب، لا يجوز لقادة الجهاد أن يتجاوزوا مرتبة منها في وضعها من الوصية النبوية إلى غيرها من المراتب إلا إذا لم تقبل المرتبة التي قبلها، وعجز الإقناع أمام العناد المستكبر عن الوقوف عندها"[4].

وفي أثناء الحديث عن أحداث غزوة (أُحد) وآثارها، ذكر المؤلف أن مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت من أكبر أسباب هزة أُحد[5]. وهكذا، فقد كان اعتماد أسلوب تحليل أحداث السيرة، والبحث عن أسبابها منهجاً واضحاً في هذا الكتاب، لا يخفى على قارئه الوقوف على العديد من الأمثلة الدالة على هذا المنهج[6].

– ذكر أقوال العلماء في مسائل فقهية معينة ومناقشتها، ونمثل لهذا المسلك بمسألة الفرار يوم الزحف، حيث تناول المؤلف هذه المسألة في أثناء حديثه عن غزوة (حنين)، حيث ذكر أن بعض كُتَّاب السيرة أطنب في ذكر الخلاف بين العلماء حول الفرار الذي جرى من بعض مَن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة، وذكر أن بعض العلماء التمس الاعتذار عن الفرار بأن العدو كان ضعف عدد المؤمنين، أو أربى من الضعف. وقد تعقب المؤلف من قال بهذا الاعتذار

---

[1] السابق: 191/4.

[2] السابق: 477/4.

[3] الحديث رواه مسلم، كتاب الجهاد والسِّيَر، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، رقم (3261).

[4] السابق: 230/3-231.

[5] يُنظر: السابق: 553/3.

[6] يُنظر: السابق: 553/3، 568، 605، 610، 9/4، 253، 261، 265، 357.

بقوله: "ولا ندري هل كثرة العدو عدداً وعدة تبيح للمؤمنين التراخي في الجهاد، وتبيح لهم الفرار من وجه العدو، إذا كان أكثر منهم بأضعاف مضاعفة؟ ولكن نعلم علم اليقين أن المسلمين واقفوا الفرس والرومان في وقائع متعددة، وكانت أعداد العدو وعدته أكثر من أضعاف أعداد المسلمين وعدته، وقد نصر الله المؤمنين على قلتهم...فلم يقل أحد: إن الكثرة العددية في العدو تُقْعِد عن الجهاد، أو تجيز الفرار أمام العدو"[1].

وقد نقل المؤلف قول الطبري في المسألة، وهو أن الانهزام المنهي عنه هو ما وقع على غير نية العَوْد، ويرد المؤلف على قول الطبري، بقوله: "كيف يُحْكم على أمر بأنه منهي عنه، أو غير منهي عنه إذا كان مشتركاً في معرفته أمر مغيب، تستحيل معرفته إلا بعد وقوعه والإبانة عنه، والنية أمر مكنون في الصدور، لا يعلمه إلا الله تعالى، ومن ارتضى من رسول يُعْلِمه بوحيه ما لم يعلم، وإلا من انطوى عليه صدره ممن نواه وعزم عليه، وليس لدينا أثر صحيح ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر عن الفارين بأنهم فروا إلى عَوْد، ولا أن أحداً من الفارين أخبر عن نفسه أنه فرَّ، وأنه ينوي العودة".

وقال الطبري أيضاً: وأما الفرار فهو كالمتحيز إلى فئة -يعني ليس انهزاماً منهياً عنه-، قال المؤلف: وهذا كلام لا يستقيم، ولا يُقبل؛ لأنه لم يُذكر له مأخذ من نص، ثم إن الفرار في غزوتي (أُحد) و(حنين) كان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس وراءه صلى الله عليه وسلم فئة يتحيز إليها، فكيف يكون الفرار للكثرة على إطلاقه كفرار المتحيز إلى فئة[2].

ثم تعقب المؤلف السهيلي فيما ذهب إليه من أنه لم يُجْمع العلماء على أن الفرار من الزحف من الكبائر إلا في يوم بدر، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ (الأنفال:16)، ثم أُنزل التخفيف في الفارين يوم (أُحد)، وهو قوله تعالى: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ (آل عمران:155)، وكذا أنزل ﴿ويوم حنين﴾ الآية (التوبة:25) إلى قوله: ﴿والله عفور رحيم﴾ الآية (التوبة:27). قال المؤلف: "وهذا كلام غير مسلَّم على إطلاقه؛ لأن ما ذُكر من الآيات في يوم بدر مقيد بزمن معين، وهو يوم بدر، كما يفهمه صراحة قوله: ﴿يؤمئذ﴾ (الأنفال:16)، وكذا ما أنزل يوم (أُحد) و(حنين) إنما أنزل في وقائع معينة لقوم معينين، وهم الذين شهدوا (أُحداً) و(حنيناً) وفروا، ثم فاؤوا، وليس في النص ما يُشعر بالعموم الشمولي الذي يتعداهم إلى غيرهم، وهؤلاء عوتبوا ثم شُرِّفوا بالعفو، والمغفرة والرحمة، فلا تصلح هذه الآيات أن تكون بناء لقاعدة؛ لكون التولي يوم الزحف من كبائر الذنوب"[3]. وهكذا

[1] السابق: 4/377-378.

[2] السابق: 4/378.

[3] السابق: 4/378-379.

يناقش المؤلف أقوال العلماء ومذاهبهم، ولا يقبل منها إلا ما سنده الدليل الشرعي، وأيده العقل.

- الدفاع عن الصحابة رضي الله عنهم وتبرئة ساحتهم، يتجلى هذا أكثر ما يتجلى في الدفاع عن الصحابة الذين اهتموا في حادثة الإفك، فقد تعارض النقل في روايات صحيحة الأسانيد عن عائشة رضي الله عنها في حسان بالنفي والإثبات..وقد عقب المؤلف على ذلك بقوله: "والذي تميل إليه النفس لتعارض الروايات أن حسان رضي الله عنه جرى في مجالس الهالكين بالإفك على طريقة سمر الشعراء وأهل الأدب القولي، يتضاحكون بالكلمات والفكاهة والخبر الساخر، دون أن يقصدوا ما يتعلق بها، وهذا فيهم كما قال الله تعالى: ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ (الشعراء:224-226) ومن ثَمَّ جرى الخلاف فيه بين العلماء: هل خاض في الإفك وأفصح بالافتراء والبهتان، أو كان يسمع ولا يدفع؟".

ثم قال: "وحسان رضي الله عنه له مواقف في الإسلام من أكرم وأشرف مواقف المجاهدين بلسانه في نصرة الدعوة الإسلامية، منذ دخل في ساحة الإسلام مسلماً مؤمناً، محباً للإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم وأهله وآل بيته. وكان في حياته المسلمة سيفاً مصلتاً على أعناق أعداء الإسلام من المشركين وشعرائهم، ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدافع عن أصحابه ودعوته، وقصائده الإسلامية في ديوانه تحتل مكاناً رَحْباً، وهي من غرر شعره...ولو لم يكن له إلا همزيته التي يقول فيها ردًّا على أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب -وكان من أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه- لكفاه فخراً في إسلامه"[1].

وأخذ المؤلف أيضاً في تبرئة مسطح من قضية الإفك، وفعل الشيء نفسه في تبرئة حمنة، بل ذهب أبعد من ذلك، فقرر أنه لم يثبت عندنا -والقول للمؤلف- أن أحداً من خُلَّص المؤمنين صرَّح بالإفك[2]. وذكر أن الذي يدين به هو "أن سيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها قبس من نور سيرته صلى الله عليه وسلم، فكما يجب في تناول سيرته صلى الله عليه وسلم أن يكون التناول قائماً على البحث المتعمق والتحقيق الممحص...يجب في تناول سيرة أصحابه رضوان الله عليهم أن يكون هذا التناول مُسْتَهْدِفاً للحق الذي لا افتراء فيه، ولا يكفي في القول به وجوده في روايات متعارضة، قد يصح بعضها، ولكن متونها وحقائقها ومعانيها قد تتعارض مع ما عُرف عن المجتمع المسلم إذ ذاك من التوقف في قبول المظنونات في غير الأحكام الجزئية التعبدية، فضلاً عن مطارح المشكوكات المريبة"[3].

---

[1] السابق: 231/4.

[2] يُنظر: السابق: 232/4-235، 240.

[3] السابق: 240/4-241.

– دعوة المؤلف المتكررة إلى القيام بتنقية التراث الفكري الإسلامي، فالمؤلف لا يكلُّ ولا يَملُّ من دعوة المخلصين من أهل العلم إلى التشمير للنهوض إلى العمل الجاد لتنقية التراث الإسلامي مما ألمَّ به من (ميكورب) الأوبئة الفكرية التي شوهت معالم الرسالة، ووقفت عقبة كؤوداً في أعصر الجمود أمام اندفاع تيار نشر الدعوة وتبليغ الرسالة؛ أداء لحق الرسالة النبوية، ومتابعة المسيرة التي حمل لواءها حذاق العلماء من أئمة الإسلام، وسلف الأمة الراسخين في فهم أصول الرسالة وفروعها، وحكم أحكامها، ودقة نظمها الاجتماعية، وعدالة أوضاعها الاقتصادية، ونقاء سياستها التربوية، واستقامة توجيهاتها السلوكية في الحياة"[1].

– هدف المؤلف الرئيس من كتابة السيرة إبراز معالم منهج الرسالة في ضوء النقد الممحص، فالمؤلف يصرح بأن هدفه الأساس "إبراز الأحاديث التي تحمل في طياتها شيئاً من معالم منهج الرسالة الخاتمة للرسالات الإلهية؛ ليكون نبراس هداية للأجيال المتعاقبة مع مرور الحياة من المجتمع المسلم أينما كان، وكيفما كان؛ لتتأسى تلك الأجيال بهذه المعالم، وتتخذ ما فيها من توجيه إلهي، وإرشاد نبوي، وتطبيق سلوكي، جمع لها حصائل الفكر والعمل ما حقق للأمة الإسلامية تاريخاً في قيادة الإنسانية، وبناء حضارة إيمانية، لم تعرف الحياة لغير هذه الأمة مدة استقامتها على منهج رسالتها"[2].

– موازنة المؤلف بين المنهج الحديثي والمنهج السيري، فمنهج "أهل الحديث في سياقاتهم لروايات أحاديث ووقائع السيرة النبوية أدق أسلوباً، وأصفى منـــزعاً، وأقرب إلى نُضْج البحث، وسواء التحقيق؛ لأنه منهج في البحث يقوم على تقبُّل النقد الممحص للأسانيد والمتون...وهذا المنهج الحديثي يجري في البحث على خلاف نسق السِّيريِّين، الذي يسوده الاحتكام إلى العواطف الوجدانية، سلباً وإيجاباً، نفياً وإثباتاً، على معنى أنهم قد يُثبتون ما لا يثبت، ويُنفون بحكم عواطفهم ما لا ينبغي أن يُنفى بحكم واقعه من الوجود؛ لأن منطقهم في البحث منطق عاطفي، يقوم على مبدأ التسامح في الفضائل، وهذا النسق السيري في ظل هذا المبدأ المتسامح لا يتحرج من قبول الروايات الفضفاضة، التي تستجلب الإعجاب البطولي، والبراعة البطولية، ومطَّ الشفاه؛ لأن موازين هذا النسق في البحث تأبى أن تخضع للتفكير المستقيم على دعائم السنن العامة في نظام الكون ومسيرة الحياة.

ولا يرى أصحاب هذا النسق حرجاً أن يكون مقياسهم في البحث قائماً في كثير من وقائعها على منهج السنن الخاصة، حتى ولو لم يتطلبها الموقف، ولا يُسمح للعقل أن يجول خلالها ليكشف حقائقها، وهذا نسج من التفكير، يلوي عنق الدعوة الإسلامية، ويعوق مسيرتها في تبليغ الرسالة، ويجعل موقفها من العقل موقف الخصم، الذي يجادل عن الحق بغير حجة مقبولة في منهج المنطق

[1] السابق: 499/4.

[2] السابق: 500/4. ويُنظر أيضاً: السابق: 574/4.

العقلي"[1].

– اعتذار المؤلف للأئمة الأعلام، ومثال هذا المسلك ما ذكره المؤلف عند الحديث عن بدء الهجرة، حيث ذكر أن حديث البخاري في هذا الباب هو أصح رواية في الموضوع، بيد أن سياق البخاري يؤذن "بالوثبة من شيء إلى شيء..."، ثم أخذ يعتذر للبخاري في صنيعه هذا، فقال: "ولعل البخاري –رحمه الله تعالى– ذكر من حديث الهجرة ما توافر فيه من شرط الصحة الخاص بجامعه الصحيح"[2].

– الحديث عن مقاصد أحداث السيرة، كحديث المؤلف عن مقاصد بناء المسجد الأعظم في المدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم المباركة، فذكر سبعة مقاصد لهذا الحدث العظيم، حاصلها أن هذا المسجد "أنشئ ليكون مُتَعبَّداً لصلاة المؤمنين وذكرهم لله تعالى، وتقديسهم إياه بحمده وشكره على نعمه عليهم...وأنشئ ليكون ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه، والوافدين عليه؛ طلباً للهداية، ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته، وليكون مهبطاً للوحي وتنـــزيلاته بآيات الله وشرائعه وأحكامه...وأنشئ ليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية والعقلية...وأنشئ ليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم وثمرات عقولهم، ومعهداً يؤمه طلاب العلم...وأنشئ ليجد فيه الغريب مأوى، وابن السبيل مستقراً، لا تكدِّره منَّة أحد عليه، فينهل من رفده، ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسي والعقلي...وأنشئ ليجد فيه الفقير والمسكين ملجأ يلجأ إليه في أمن واستقرار نفسي وحسي...وأنشئ ليكون قلعة لاجتماع المجاهدين إذا استنفروا، تعقد فيه ألوية الجهاد والدعوة إلى الله..."[3].

هذا مجمل معالم المنهج الذي سلكه الأستاذ محمد الصادق إبراهيم عرجون في دراسته للسيرة النبوية، وهو منهج قائم على البحث والتحقيق والتدقيق والتمحيص. ونحسب أن المؤلف رحمه الله قد وفِّق في بحثه غاية التوفيق.

رابعاً: المقارنة بين الكتابين

بالمقارنة بين الكتابين موضوع الدراسة، نستطيع أن نقارن بينهما بتسجيل النقاط التالية:

1– لم يكن المؤلفان مجرد ناقِلَين لأحداث السيرة ووقائعها، بل كان شغلهما الشاغل توظيف

---

[1] السابق: 527/4.

[2] السابق: 504/2. ويُنظر أيضاً: السابق: 534/4، 541.

[3] السابق: 33/3–35. ويُنظر أيضاً: السابق: 29/3–32، 36–37.

أحداث السيرة في واقع المسلمين، وخاصة الشباب منهم. وقد أراد المؤلفان من خلال كتابيهما استنهاض همم الشباب، والدفع بهم للتمسك بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعل هذه السيرة منارة تقتدي بها الأجيال الصاعدة في دربها الشاق والطويل.

2- حرص المؤلفان على دفع الشبه المثارة حول أحداث السيرة النبوية، وسعيا عن طريق البرهان العقلي الصحيح، والنص الشرعي الثابت إلى تجلية الحقائق المتعلقة بتلك السيرة.

3- كان أسلوب الأستاذ فتح الله كولن في تناول أحداث السيرة أسلوباً سهلاً، سلساً، مباشراً، خالياً من التعقيد، تدخل أفكار الكاتب إلى القلوب بغير استئذان، فجاء كتابه مخاطباً للمستويات كافة، وخاصة المستويات العامة، حيث يجد فيه القارئ العادي بغيته من غير صعوبة أو مشقة. بالمقابل، كان أسلوب الأستاذ محمد الصادق عرجون أسلوباً علمياً رصيناً، ذا لغة جزلة فصيحة، لا يصبر عليه القارئ العادي غير المتمرس، فجاء كتابه أشبه ما يكون كتاباً تخصصيًّا، مخاطباً للطبقة العالمة من الناس.

4- امتاز الأستاذ محمد الصادق عرجون في كتابه بوضوح المنهج في دراسته لأحداث السيرة ووقائعها، حيث قام منهجه على نقد الروايات وتمحيصها سنداً ومتناً، ومن ثَمَّ قبول ما صح سنده من الروايات، ولم يتعارض متنها مع نصوص الشرع العامة، ومقتضى العقل. في حين لم نلحظ هذا المنهج عند الأستاذ فتح الله كولن، فهو لم يحقق الروايات الواردة في كُتب السِّيَر، بل كان يغلب عليه النقل لروايات السيرة من غير تحقيق لأسانيدها، ولا تمحيص لمتونها، ونمثل لهذا المسلك بذكره للرواية المشهورة على الألسنة، والتي تقول: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب)[1]، فهذه الرواية بحاجة للتحقيق من جهة السند والتمحيص من جهة المتن[2].

5- تعامل الأستاذ محمد الصادق عرجون مع روايات السيرة النبوية بعين الناقد البصير، والممحص الخبير، فلم يقبل من تلك الروايات إلا ما صح سنده، واستقام متنه، بالمقابل كان الأستاذ فتح الله كولن يأخذ روايات السيرة كأنها مسلمات لا مجال للطعن فيها أو ردها، ولا يخفى ما في هذا المسلك من تجنٍّ على الحقيقة، وخاصة إذا كانت تلك الحقيقة تتعلق بسيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم.

6- لم يكتف الأستاذ محمد الصادق عرجون في قبول روايات السيرة بصحة السند، بل أعمل

---

[1] الحديث تقدم تخريجه.

[2] النور الخالد، مرجع سابق: 573. ويُنظر في نقد هذه الرواية: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون: 611/1.

سلاح النقد والتمحيص في متونها أيضاً، ومن ثَمَّ لم يقبل من الروايات ما كان متنها معارضاً لدليل شرعي كلي، أو مخالفاً لمقتضيات العقل الصحيح. وهذا المسلك لم نجده عند الأستاذ فتح الله كولن لا على مستوى السند، ولا على مستوى المتن.

7- كان موقف الأستاذ محمد الصادق عرجون من أقوال أكابر العلماء موقف الناقد الممحص، لا موقف القابل المستسلم، فكان ينظر في أقوالهم بعين الناقد البصير، ويُعمل فيها البحث والتمحيص، فيقبل منها ما أيده الدليل، وسانده العقل، ويرفض منها ما عارضه الدليل، وخالفه العقل. بالمقابل لم نقف على هذا المسلك عند الأستاذ فتح الله كولن، حيث إنه تعامل مع أحداث السيرة ووقائعها مباشرة، فلم نره ينقل أقوالاً لأهل العلم تتعلق بمجريات أحداث السيرة النبوية.

8- يُلاحَظُ على الأستاذ محمد فتح الله كولن استشهاده ببعض الأحاديث الضعيفة؛ لتأكيد بعض الأفكار؛ فمثلاً نجده يستشهد بالقول المشهور على الألسنة: (لولاك لولاك ما خلقتُ الأفلاك)[1]، والمقصود بالخطاب هنا محمد صلى الله عليه وسلم. ويستشهد أيضاً بحديث (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)[2]. ويستشهد كذلك بحديث: (لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً)[3]. ويستشهد أيضاً بحديث: (كما تكونوا يولى عليكم)[4]. ويستشهد بحديث: (تفكر ساعة خير من عبادة سنة)[5]. ويستشهد بحديث: (أصحابي كالنجوم، فبأيهم اقتديتم اهتديتم)[6]. ويستشهد بحديث: (علموا أبناءكم السباحة والرمي)[7]. ويستشهد بحديث: (إن الله تعالى جعل لكل نبي شهوة، وإن شهوتي في قيام الليل)[8]. وهذا المسلك لم نجده عند الأستاذ محمد الصادق عرجون، بل على العكس تماماً كان

---

[1] قال العجلوني: "قال الصغاني: موضوع، وأقول: لكن معناه صحيح، وإن لم يكن حديثاً". يُنظر: المقاصد الحسنة: 164/2؛ النور الخالد، مرجع سابق: 16، 420.

[2] قال الزركشي وابن حجر والسيوطي: لا أصل له. وزاد بعضهم: ولا يُعرف في كتاب معتبر. وممن نقله جازم بأنه حديث مرفوع: الرازي، وابن قدامة، والأسنوي، وغيرهم. يُنظر: المقاصد الحسنة: 64/2؛ النور الخالد، مرجع سابق: 62.

[3] الأسرار المرفوعة، علي القاري: 193؛ النور الخالد، مرجع سابق: 72-73، 148، 339.

[4] قال العجلوني: "قال في الأصل: رواه الحاكم ومن طريقه الديلمي عن أبي بكرة مرفوعاً، وأخرجه البيهقي بلفظ: يؤمر عليكم". يُنظر: كشف الخفاء: 126/2؛ كنـز العمال: 89/6؛ النور الخالد، مرجع سابق: 191، 352.

[5] ذكره الفاكهاني بلفظ: (فكر ساعة) وقال: إنه من كلام سري السقطي. وذكره في الجامع الصغير بلفظ: (فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة). وورد عن ابن عباس وأبي الدرداء بلفظ فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة. يُنظر: كشف الخفاء: 310/1. النور الخالد، مرجع سابق: 319.

[6] رواه البيهقي. وأسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ: (أصحابي بمنـزلة النجوم في السماء، بأيهم اقتديتم اهتديتم). يُنظر: كشف الخفاء: 132/1؛ النور الخالد، مرجع سابق: 487، 501.

[7] قال العجلوني: "رواه ابن منده، والديلمي عن بكر بن عبد الله الأنصاري مرفوعاً، وسنده ضعيف. لكن له شواهد: فعند الديلمي عن بكر بن جابر مرفوعاً: (علموا أبناءكم السباحة والرمي). يُنظر: كشف الخفاء: 68/2؛ النور الخالد، مرجع سابق: 510.

[8] قال الهيثمي: "رواه الطبراني في (الكبير) وفيه إسحق بن عبد الله بن كيسان عن أبيه، واسحق ليَّنه أبو حاتم، وأبوه وثَّقه ابن حبان،

شديد الحرص على تمحيص روايات السيرة نفسها، وردِّ ما ضعف سنده، أو اضطرب متنه.

9- يُلاحَظُ على الأستاذ فتح الله كولن اعتداده بالأئمة الربانيين فيما ينقلونه من أقوال، وما ينسبونه من أحاديث تلقوها من الرسول مباشرة، مثل ما نُقل عن ابن عربي من أنه أخذ هذا الحديث من الرسول مباشرة، وهو: (كنت كنــزاً لا أُعرَف، فأحببت أن أُعْرَف، فخلقت خلقاً، فعرَّفتهم بي، فعرفوني)[1]، ومع أن المؤلف يصرح بأن هذا الحديث لا وجود له في كُتب الحديث، إلا أن تأصيله للفكرة بحدِّ ذاتها غير مقبول، وخاصة من وجهة نظر أهل الأثر والحديث. وهذا المسلك لا أثر له عند الأستاذ الصادق عرجون، بل كان يحذر من قبول الأغلاط التي يقع فيها الأكابر، ويدعو إلى عدم الاستسلام لها، أو الخضوع لمكانة صاحبها.

هذا ما بدا لي من أوجه المقارنة بين هذين الكتابين. وأنتقل بعدُ إلى خاتمة البحث وأهم نتائجه.

خاتمة ونتائج

على ضوء ما تقدم من بيانٍ لمعالم كتاب الأستاذ محمد فتح الله كولن والأستاذ محمد الصادق إبراهيم عرجون، أستطيع القول: إن هذين الكتابين يكمل أحدهما الآخر، فإذا كان كتاب الأستاذ فتح الله كولن قد خاطب في كتابه عاطفة القارئ أكثر مما خاطب عقله، فإن كتاب الأستاذ محمد الصادق عرجون قد خاطب عقل القارئ أكثر مما خاطب عاطفته، وإذا كان أسلوب الأستاذ محمد فتح الله كولن أسلوباً سهلاً بسيطاً، لا يكلف القارئ كبير عناء، فإن أسلوب الأستاذ محمد الصادق عرجون كان أسلوباً رصيناً جزلاً، يحتاج القارئ معه غير قليل من العناء، فالكتابان في المحصلة –فيما نحسب– متكاملان، وفي كليهما خير.

ونختم هنا بتسجيل أهم النتائج التي خَلَص إليها هذا البحث، وهي وَفَق التالي:

أولاً: يُعدُّ كتاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للأستاذ محمد الصادق إبراهيم وكتاب النور الخالد للأستاذ فتح الله كولن من أهم كُتب السيرة النبوية التي ألفت في العصر الحديث.

ثانياً: امتاز كتاب الأستاذ فتح الله كولن بسهولة العبارة، وتيسير عرض أحداث السيرة، في حين امتاز كتاب الأستاذ محمد الصادق عرجون بتمحيص الروايات، ونقد متونها، وتحقيق أقوال العلماء، وترجيح ما أيده الدليل.

وضعفه أبو حاتم وغيره". يُنظر: مجمع الزوائد: 271/2؛ كنــز العمال: 785/7؛ النور الخالد، مرجع سابق: 591.

[1] السابق: 653. ويُنظر: كشف الخفاء: 132/2؛ الأسرار المرفوعة: 179.

ثالثاً: حرص المؤلفان على ربط أحداث السيرة النبوية بواقعنا المعاصر؛ إذ الغرض الأساس من عرض أحداث السيرة الاقتداء بها والاستنان بهديها.

رابعاً: ابتعد المؤلفان في نقل أحداث السيرة ووقائعها عن أسلوب سرد الأحداث، بل كان شغل المؤلفين الرئيس تحليل أحداث السيرة، وتنـــزيل وقائعها على قضايانا المعاصرة.

ومما يوصى به في هذا المقام المتابعة في عقد الندوات الدورية والمؤتمرات العلمية الباحثة في موضوعات السيرة النبوية، وإنشاء مراكز علمية متخصصة لدراسة وبحث موضوعات السيرة النبوية.

مصادر البحث

ـــ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج رسالة بحث وتحقيق: محمد الصادق إبراهيم عرجون. دمشق: دار القلم، ط2، 1415هـــ-1995م.

ــ النور الخالد محمد صلى الله عليه وسلم مفخرة الإنسانية: محمد فتح الله كَوُلن. القاهرة: دار النيل للطباعة والنشر، ط1، 1428هـــ-2007م.